التفسير التربوي

ومضات تربوية من وحي القرآن الكريم

تأليف

د. فاطمة محمد مارديني

اعتنى به

أ. محمد ديب مليحي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبع هداهم إلى يوم الدين، وبعد:

هذه ورقات في شرح بعض سور القرآن الكريم، وقد تم التركيز فيها على موضوعات تربوية، تفيد القارئ في دينه ودنياه، ولا عجب أنّ الكثير من سور القرآن الكريم تفيض بالتربية، وتؤكد على الأخلاق، وذلك لأن المؤمن لا يكمل إيمانه ما لم يحب لأخيه ما يحبه لنفسه، وما لم يمتنع عن إيذاء جاره، وما لم يبتعد عن الظن السيء بالآخرين واغتيابهم وزرع الفتن والبغضاء بينهم.

فالإيمان أمر عظيم جداً، تنوء بحمله الجبال وتكلّ عن حمله النفوس الخبيثة، التي تظهر عكس ما تبطن، وتتزيّا بزيٍّ لا يليق بها، وترضى من الإيمان اسمه، ومن القرآن رسمه، وتجعله مطية للوصول إلى كل منفعة حقيرة دنيوية، دون انتظار أي عطاء أخروي، إنهم الذين قال الله تعالى عنهم:

﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

إن الناظر في سورة الحجرات وغيرها من سور القرآن الكريم، يجد أنها ترسم صورة لمجتمع مثالي، لو طبق المسلمون بعضاً من أوامرها، بدل أن يبحثوا عن تلك المثاليات في قوانين غربية، وبرامج تربوية يراد بها الوصول بالمجتمع المسلم إلى مهاوي الضلال، وتأتينا في قوالب جاهزة، بهية المنظر، خبيثة الطعم والمحتوى، يتهافت عليها بعض المسلمين الجاهلين كالغرثى يتضورون جوعاً ويظنونها الفالوذج في أواني الفيروذج.

وليت شعري صارت القوالب متعددة، والألوان مبهرة، ولا يعلم الحقائق إلا من تولاه الله تعالى بعين عنايته، وأرسل له من يدله على الصواب، ويرشده ليتجنب سبل العذاب.

أما عن سبب اختيار السور الكريمة (الحجرات، ق، النساء) بالذات؛ فالحقيقة انه لا يُتخير بين سور القرآن الكريم، ولكن الحاجة هي التي تحدد السورة المدروسة، فعندما يحتاج المجتمع إلى أحكام فقهية يلجأ الباحثون إلى سور فيها أحكام أكثر من غيرها، مثل (البقرة، آل عمران، المائدة.....).

وعندما يبتغي العلماء التركيز على الأخلاق لإصلاح المجتمع، فلابد من اللجوء إلى سور مثل (الحجرات، ق...) وغيرها، فالقرآن الكريم فيه الحلول لكل مشاكل الإنسان في كل نواحي حياته.

ولست أدعي أنني فسرت هذه السور الكريمة، لكنني نقلت عن المفسرين ما جادت به قرائحهم، وأضفت عليها شيئاً من الدراسة والشروحات التي تناسب الواقع، وتميزت هذه الدراسة بالتبويب والتبسيط الذي يلائم الحاجة لدى القراء، للوصول إلى المعلومة بأبسط طريقة وأيسر أسلوب.

وقد اتبعت منهج الاختصار في عرض الموضوعات، وحاولت الاعتماد على الأحاديث الصحيحة ما أمكن، إلا ماندر من الأحاديث الضعيفة التي اضطررت للاستشهاد بها لعدم وجود أصح منها، وجاز لي ذلك إذ استشهدت بها في فضائل الأعمال.

واستبعدت طبعاً كل ما يروى في بعض كتب التفسير، من قصص وروايات إسرائيلية لا أصل لها ولا جدوى منها، بل الاعتماد عليها قبيح، والاستغناء عنها واجب.

وكانت خطة الدراسة كالتالي:

أربعة فصول بالعناوين التالية:

الفصل الأول: سورة الحجرات (تعريف عام).

الفصل الثاني: سورة الحجرات بالتفصيل، حيث تم شرح الآيات بالتفصيل، وإعراب الكلمات التي يشكل إعرابها، ثم الفوائد من كل مقطع من السورة.

الفصل الثالث: سورة ق، وقد تم التركيز على بعض مشاهد من يوم القيامة، بالشرح واستنباط بعض الفوائد منها دون التعرض للإعراب في هذه السورة.

الفصل الرابع: سورة النساء، نموذجاً للتفسير الإجمالي للقرآن الكريم، الذي يركز على تعداد موضوعات السورة ومقاصدها الأساسية، دون اللجوء للشرح التفصيلي، أو المباحث اللغوية بشكل عام.

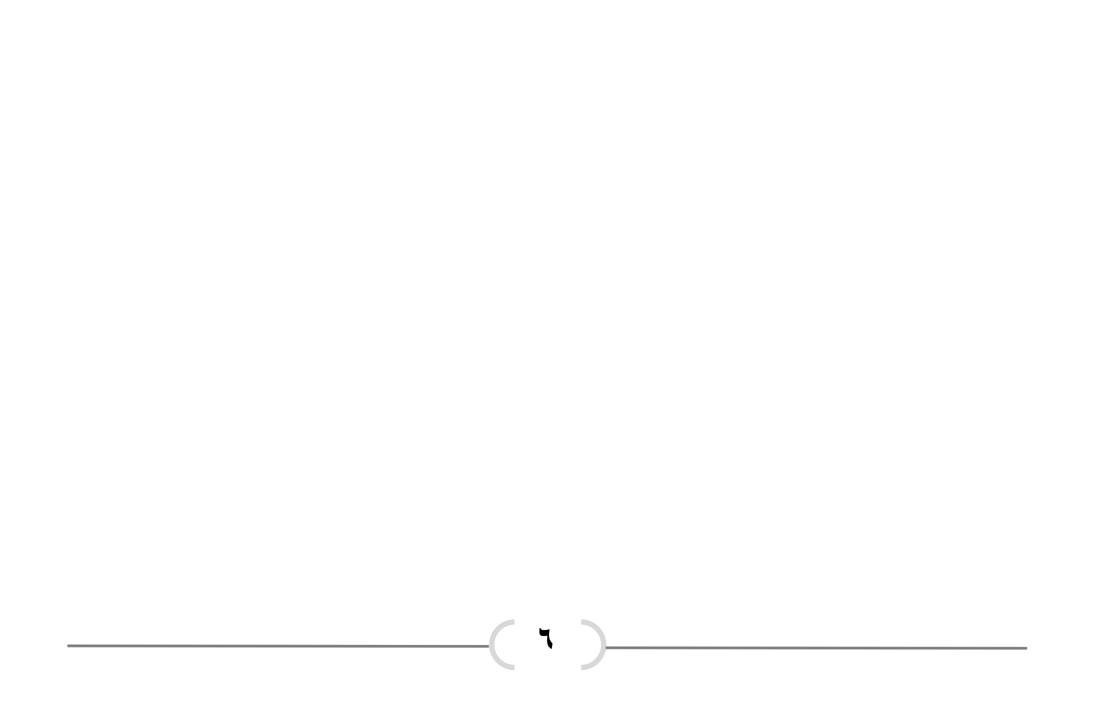
وتحت كل فصل عدة مباحث، وتحت كل مبحث عدة مطالب، يأتي تفصيلها في فهرس الكتاب بإذن الله.

نسأل الله تعالى التوفيق والسداد، ونرجوه تعالى لمجتمعاتنا الإسلامية الصحوة من رقادها، والعودة لدينها وتعاليم نبينا الحبيب ﷺ، إنه على ما يشاء قدير.

والحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.







الفَصْلُ الأَوَّلُ

سورة الحجرات

(تعريف عام)

المبحث الأول

مقدمة عامة عن السورة

سورة الحجرات من السور المدنية وهي على وجازتها وقلة آياتها، حيث لا تتجاوز ثماني عشرة آية، سورة جليلة تتضمن حقائق كبيرة من أمور العقيدة والشريعة، ومن حقائق الوجود البشري، وتشمل مناهج التكوين والتنظيم، وقواعد التربية والتهذيب، وأصول التشريع والتوجيه، وأسس المدنية والأخلاق، حتى لقد سماها بعضهم سورة الأخلاق، وقد جاء في السورة الكريمة خمس نداءات بلفظ الإيمان[1] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وفي الخطاب بهذه الصفة وجوه من الحكم:

١- تشريفه وتكريمه سبحانه لعباده المؤمنين، فإن الوصف بالإيمان فيه شرف كبير، ولذلك وصف به سبحانه حملة العرش ومن حوله، ومدحهم بذلك، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ [غافر: ٧].

٢- تحريض للمؤمنين، وحث للاهتمام بما يليه من الأوامر أو المناهي لأن لها ارتباطاً وثيقاً بإيمانهم، فليسارعوا إلى تحقيق ذلك، ليكمل لهم إيمانهم لأن ذلك هو مقتضى إيمانهم الذي اتصفوا به، وبذلك يتبين الصادق في الإيمان من المنافق الكاذب.

تسمية السورة[2]:

سميت السورة الحجرات لأن الله تعالى ذكر فيها تأديب أولئك الذين

---

(١) انظر إيجاز البيان، الصابوني (٢٠٤) وفي ظلال القرآن، قطب (٦/٣٣٣٥) وتفسير سورة الحجرات، عبد الله سراج الدين (٥).

(٢) انظر التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٦/٢١٣) والتفسير المنير، زحيلي (٢٦/٢١١).

ينادون رسول الله محمداً ﷺ من وراء الحجرات، وهي منازله الكريمة التي كان فيها أزواجه المؤمنات الطاهرات رضي الله عنهن.

وقد أشارت إلى حادث وقع من وفد قدم على رسول الله ﷺ في عام الوفود وكانوا أعراباً جفاة كما ورد عن زيد بن أرقم[1] رضي الله عنه قال: «جاء ناس من العرب فقالوا: انطلقوا بنا إلى هذا الرجل، فإن يك نبياً فنحن أسعد الناس به، وإن يك ملكاً عشنا في جنابه، فانطلقت إلى النبي ﷺ فأخبرته بما قالوا، ثم جاؤوا إلى حجر النبي ﷺ فجعلوا ينادون: يا محمد يا محمد»[2] فأنزل الله تعالى هذه الآيات لتعليم الناس محاسن الآداب تنبيهاً على قدر الرسول ﷺ المربي والمرشد العظيم.

نزول السورة[3]:

سورة الحجرات مدنية بالاتفاق، وهي السورة الثامنة بعد المئة في ترتيب نزول سور القرآن الكريم، نزلت بعد المجادلة وقبل التحريم، وآياتها ثمان عشرة آية. وهي (٣٤٣) ثلاث وأربعون وثلاثمئة كلمة، و(١٤٧٠) سبعون وأربعمئة وألف حرف.

مناسبة السورة لما قبلها[4]:

تتناسب سورة الحجرات مع سورة الفتح من خلال نقاط ثلاث أساسية:

---

(١) زيد بن أرقم: صحابي، شهد مع النبي ﷺ سبع عشرة غزوة، وله حديث كثير ت (٦٦)هـ، الإصابة (١/٥٤٢).

(٢) الطبراني في الكبير، باب زيد بن أرقم الأنصاري يكنى أبا عامر، (٥/٢١٠)، رقم (٥١٢٣).

(٣) انظر التحرير، ابن عاشور (٢٦/٢١٣) والبرهان، الزركشي (١/١٩٤) والإتقان، السيوطي (١/١٣ و٢٢٦).

(٤) انظر البحر المحيط، أبو حيان (٨/١٠٥) ونظم الدرر، البقاعي (١٨/٣٥٣) وما بعدها، وتناسق الدرر، السيوطي (٧٩) ومفاتيح الغيب، الرازي (٢٨/٩٥).

١- في سورة الفتح حكم قتال الكفار، وذلك في أغلب آيات السورة، وفي سورة الحجرات حكم قتال الفئة الباغية من المسلمين: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الحجرات: ٩].

٢- في كلتا السورتين تشريف وتكريم لرسول الله ﷺ خصوصاً في مطلع كل منهما، والتشريف يقتضي من المؤمنين الرضا بما رضي به الرسول ﷺ وألا يتركوا شيئاً من احترامه قولاً وفعلاً مثل قوله تعالى في سورة الفتح: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ٢٩﴾ [الفتح: ٢٩].

وقوله عز وجل في الحجرات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٢﴾ [الحجرات: ١-٢].

أما مناسبة سورة الحجرات مع ما بعدها (ق) فسوف يأتي عند تفسير سورة (ق) إن شاء الله تعالى[١].



---

(١) ص (١٦٢) من الكتاب.

المبحث الثاني

موضوعات السورة ومقاصدها الأساسية

المطلب الأول – طاعة الله تعالى وطاعة رسوله محمد ﷺ[1]:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١﴾ [الحجرات: ١].

ابتدأت السورة الكريمة بتوجيه المؤمنين إلى احترام أوامر الله تعالى وأوامر رسوله ﷺ، وألا يبدوا رأياً أو يقضوا حكماً أو يبرموا أمراً قبل أمر الله وأمر رسوله ﷺ، فإن ذلك من مستلزمات الإيمان وفي هذا الاستهلال نهي واضح عن مخالفة كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، والآية شاملة أيضاً ترتيب مصادر الاجتهاد، عن معاذ بن جبل[2] رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له حين بعثه إلى اليمن: «كيف تقضي إذا عرض لك قضاء؟ قال: أقضي بكتاب الله، قال: فإن لم تجد في كتاب الله؟ قال: فبسنة رسول الله ﷺ، قال: فإن لم تجد في سنة رسول الله ولا في كتاب الله؟ قال: أجتهد رأيي ولا آلو، فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله»[3].

فقد أخر رأيه ونظره واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة.

---

(١) انظر إرشاد العقل السليم، أبو السعود (١١٥/٨) والتحرير، ابن عاشور (٢١٥/٢٦) وتفسير سورة الحجرات، سراج الدين (٧) وما بعدها.

(٢) معاذ بن جبل الخزرجي: صحابي وأعلم الأمة بالحلال والحرام، ت(١٨)هـ الإصابة: (٤٠٦/٣).

(٣) أبو داود في الأقضية، باب: اجتهاد الرأي في القضاء، (٣٣٠/٣)، رقم (٣٥٩٤).

المطلب الثاني – الأدب مع رسول الله ﷺ وعدم رفع الصوت عنده[(1)]:

تناولت السورة أدباً آخر مع الرسول الكريم ﷺ خاصة، وهو عدم رفع الصوت في حضرته ﷺ، تعظيماً لمقامه الشريف وتوقيراً لجلالة قدره فهو رسول الله الرحمة المهداة إلى العالمين ولقد دعاهم الله تعالى بذلك النداء الحبيب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وحذرهم بذلك التحذير الرهيب: ﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾.

لقد نهى الله تعالى المؤمنين أن يبلغوا بأصواتهم وراء حد يبلغه رسول الله ﷺ بصوته، بحيث لا يكون لصوتهم الرفعة والفوقية، فقال تعالى: ﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ۝٤ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥﴾ [الحجرات: ٢-٥].

وقد تضمنت الآية الكريمة نهي المؤمنين أن يعاملوا رسول الله ﷺ في الجهر بالقول معاملة الأقران بعضهم بعضاً من حيث المساواة في أصواتهم، بل يجب الغض والخفض، والقول اللين القريب من الهمس تهيباً وتعظيماً له ﷺ، وإجلالاً لمقام نبوته الخاتمة، ورسالته العامة.

ويدخل في هذا النهي التحذير من مخاطبته ﷺ باسمه أو كنيته كما يخاطب بعضنا بعضاً، بل يجب أن يكون خطابهم له ﷺ بأوصاف التكريم

---

(١) انظر روح المعاني، الألوسي (١٣٤/٢٦) ومدارك التنزيل، النسفي (١٦٤/٤)، وتفسير سورة الحجرات، سراج الدين (٢٦) وما بعدها.

والتعظيم، فلا يقولوا: يا محمد، يا أحمد! بل: يا رسول الله، يا نبي الله، مراعاة لرفعة منصب نبوته وشرف رسالته ﷺ.

وإن خطابات الحق له ﷺ لم تكن إلا تكريماً له بأوصاف النبوة والرسالة ونحوهما، مما يدل على التعظيم والتكريم، فقد قال تعالى مثلاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥﴾ [الأحزاب: ٤٥].

وقال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾ [المائدة: ٦٧].

المطلب الثالث - التثبت من الأخبار[1]:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٨﴾ [الحجرات: ٦-٨].

تنتقل السورة من الأدب الخاص مع رسول الله ﷺ إلى الأدب العام مع المؤمنين، لتوجه أنظارهم إلى وجوب التثبت من الأخبار، وألا يتلقفوا الأنباء على أنها حقائق مؤكدة، فكم من كلمة سببت كارثة من الكوارث وكم من خبر لم يتثبت معه سامعه جر وبالاً وأحدث انقساماً بين جماعات المسلمين، لذلك جاءت الآيات تأمر بالتثبت من مصدر الأنباء.

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (الحجرات: ٦-٨) وتفسير سورة الحجرات، سراج الدين (٦٦) وما بعدها.

المطلب الرابع – الإصلاح بين الفئات المتخاصمة وقتال الباغي[1]:

بعد أن أمر الله تعالى بالتثبت في نقل الأخبار التي قد توقع في المخاوف والأخطار، فإن منها أخباراً صحيحة، ومنها أخباراً فاسدة، ومنها الصدق ومنها الكذب، ومنها أخباراً باطلة ذميمة يشبه أن تكون من باب النميمة، فتورث في النفوس البغضاء والحقد، وإذا استحكم ذلك قد يجر إلى القتال فيقعون في بلاء شديد، يفسد أمر العباد والبلاد، فما هو علاج هذا البلاء وكشف تلك الفتنة العمياء؟ إنه الإيمان الذي حببه الله إليهم، إذ فيه بيان كل خير، والإبعاد عن كل شر، وفيه الأمر بالتحابب، وعدم الاختلاف والتباغض، بل الواجب يفرض عليهم أن يكونوا كالجسد الواحد، مجتمعين غير مختلفين، متوادين غير حاقدين ولا حاسدين، لذلك أمرت الآيات الكريمة بالإصلاح بين الفئات المتخاصمة، ثم بردع الظالم وكفه عن ظلمه، حتى ولو أدى ذلك إلى قتال الباغي، صيانة للمجتمع الإسلامي من عوامل التفكك والتخاصم، ودرءاً للشرور والآثام، وإقراراً للحق والعدل والسلام، يقول تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحجرات: ٩-١٠].

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (الحجرات: ٩-١٠) وتفسير سورة الحجرات، سراج الدين (١١٧) وما بعدها، والخلق الكامل، محمد أحمد جاد المولى (١٠٥) ودستور الأخلاق في القرآن، عبد الله دراز (٧٣٣).

المطلب الخامس – النهي عن السخرية والهمز واللمز بين المؤمنين[1]:

تنتقل السورة لتقيم دعائم المجتمع الفاضل على أسس متينة من الحب والخير والوئام، فتأمر بصيانة كرامة الفرد، وتنهى عن السخرية والهمز واللمز بأحد من المؤمنين، لأنهم يجب أن يكونوا وحدة متماسكة كأعضاء في جسم الإنسان.

يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الحجرات: ١١].

وقد خاطب الله تعالى المؤمنين بصفة الإيمان، الناهية لهم عن كل ما فيه إخلال أو إفساد، أو سوء أدب أو إيذاء للمؤمن، أو تحقير له أو استصغار أو تعييب، فجميع ذلك هي أمور فيها إخلال ومنافاة للأخوة الإيمانية وإن تلك المناهي تتنافى مع دعواهم الإيمان، بل إن الإيمان الذي اتصفوا به يطالبهم بالانتهاء عن تلك المناهي.

فنهى تعالى أولاً عن السخرية، وهي الهزء والاحتقار للغير قولاً أو فعلاً، بحضرة ذلك الغير، وقد تكون السخرية بالنظر إلى المسخور منه بعين النقص، أو التنبيه على ما فيه من العيوب والنقائص على وجه يضحك منه الحاضرين، وقد تكون بالمحاكاة بالفعل، أو بالقول، أو بالإشارة أو الإيماء أو الضحك على كلام المسخور منه إذا غلط، أو الضحك على صفته أو دمامة صورته، أو نقص في مداركه، أو قد يتعلق بتقصيره في الطاعة والعبادة ونحو ذلك.

---

(١) انظر تفسير الحجرات، سراج الدين (١٥٦ وما بعدها) وإحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي (١٣١/٣) والخلق الكامل، جاد المولى (٣٧٣/١) ودستور الأخلاق في الإسلام، دراز (٧٢٩).

وتنتقل الآيات إلى نهي المؤمنين أن يعيبوا بعضهم فقال تعالى:

﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ أي لا يعب بعضكم بعضاً، وقد جعل الله لمز بعض المؤمنين لمزاً للنفس لأنهم كنفس واحدة، فمتى عاب المؤمن أخاه فكأنما عاب نفسه والهماز اللماز مذموم ملعون، كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١].

والهمز يكون بالفعل والقول، وقد عاب الله تعالى من اتصف بذلك في قوله تعالى: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١١].

ثم تذكر الآية التنابز بالألقاب، أي التداعي بالألقاب التي يسوء الشخص سماعها فقال تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ أي لا يلقب بعضكم بعضاً لقب سوء يغيظه، كأن يقول المسلم لأخيه المسلم: يا فاسق، يا منافق، أو يقول لمن أسلم: يا يهودي أو يا نصراني، أو ينادي لأي إنسان باسم حيوان من الحيوانات، وقد نص العلماء على تحريم تلقيب الإنسان بما يكره، سواء أكان صفة له أم لأبيه أم لأمه، أم لكل من ينسب إليه، روى مسلم عن رسول الله ﷺ: «أيما امرئ قال لأخيه: يا كافر! فقد باء بها أحدهما، إن كان كما قال، وإلا رجعت عليه»[١].

المطلب السادس – اجتناب سوء الظن بالمؤمنين[٢]:

تطهيراً للضمير من أن يتلوث بالظن السيء بالآخرين، ليظل المجتمع نقياً

---

(١) مسلم في الإيمان، باب: بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم: يا كافر، (١٨/٢٢١)، رقم (١١١).

(٢) انظر تفسير سورة الحجرات، سراج الدين (١٨٨) ودستور الأخلاق في القرآن، دراز (٦٩٦).

بريئاً من الهواجس والشكوك قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

حيث تخاطب الآية المؤمنين لتنبه إلى أمر عظيم، وخطر جسيم، ينبغي الإصغاء إليه وتلقيه بالقبول والطاعة، بمقتضى الإيمان الذي اتصفوا به، ألا وهو سوء الظن بالمؤمنين فقد أمر الله سبحانه عباده المؤمنين أن يتباعدوا عن كثير من الظن، حتى لا يقعوا في ظنون سيئة فيها تهمة بالسوء لمن هو ليس في موضع سوء الظن، كمن يظن به الفاحشة أو شرب الخمر أو غير ذلك من المحرمات بدون أن يكون لديه دليل على هذا الظن بل كان المظنون به ظاهر الصلاح، أو هو مستور الحال لم يعرف بتعاطي المحرمات قال رسول الله ﷺ: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً»[(١)]. أو أن يظن الإنسان بأخيه سوءاً لتصرف ظهر منه، ولم يحسن فهمه أو كان الأمر يحتمل الوجهين، فيحمله على السوء أولاً من غير أن يعذر أخاه أو يقدم المحمل الحسن.

أما أهل السوء والفسوق المجاهرون بالفجور، فيجوز ظن السوء بهم لتجنبهم والتحذير من سلوكهم.

المطلب السابع – النهي عن التجسس[(٢)]:

تنهى السورة عن التجسس لكشف عورات المسلمين وتتبع هفواتهم، فيقول تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ [الحجرات: ١٢].

---

(١) مسلم، باب تحريم الظن والتجسس، (١٩٨٥/٤)، رقم (٢٥٦٣).

(٢) انظر تفسير سورة الحجرات، سراج الدين (١٩٤) وما بعدها ودستور الأخلاق، دراز (٧٣٠).

والتجسس هو تتبع أخبار الغير والبحث عما يكتم منها، والاستماع إلى حديث القوم وهم له كارهون، أو التسمع على أبوابهم، والبحث عن عورات الناس ومعايبهم، والاستكشاف عما ستروه من الزلات والعثرات، وهو يعد من الكبائر، كما قال الجمهور.

قال رسول الله ﷺ: «يا معشر من آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته ومن يتبع عورته يفضحه في بيته»[١].

وقال رسول الله ﷺ: «من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون أو يفرون منه صب في أذنه الآنك يوم القيامة»[٢] – والآنك: الرصاص المذاب – فالتجسس المنهي عنه في الآية هو البحث عن عورات الناس وذنوبهم المستترة، وهي ذنوب فعلوها متسترين، قاصرة عليهم لا يتعدى شرها للغير ولا أذاها، ولا ضرر منها على غيرهم.

المطلب الثامن – التحذير من الغيبة[٣]:

تحذر السورة من الغيبة التي تهدم بنيان المجتمع، ويجيء النهي في تعبير عجيب يصوره القرآن الكريم بشكل تنفر منه النفوس، حتى ولو كانت ضعيفة

---

(١) أبو داود في الغيبة، باب: من رد عن مسلم غيبة، (٦٨٦/٢)، رقم (٤٨٨٠).

(٢) البخاري في التعبير، باب: من كذب في حلمه، (٣٧٤/١٢) رقم (٢٤٨).

(٣) انظر تفسير سورة الحجرات، سراج الدين (١٩٨) وتفسير الجلالين، المحلي والسيوطي (٥٤٣) وإتمام فتح الخلاق في مكارم الأخلاق للدجوي، علاء الدين زعتري ومحمد علي سلطاني (١٨٧)، والخلق الكامل، جاد المولى (٤٣/٤)، وصحيح مسلم بشرح النووي، يحيى بن شرف الدين النووي (١٤٢/٨) وإحياء علوم الدين، الغزالي (١٤١/٣) ومختصر منهاج القاصدين، ابن قدامة المقدسي (١٤٦) والخطايا، عفيف طبارة (١٣١).

الشعور والإحساس، إنه منظر الأخ يأكل لحم أخيه وهو ميت، ويا له من تنفير عجيب، يقول تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

والغيبة هي كما بينها رسول الله ﷺ في الحديث حيث قال:

«أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ذكرك أخاك بما يكره. قيل: أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته»[1]. والمراد بذكرك أخاك بما يكره، ذكره صريحاً أو كناية أو كتابة، أو رمزاً أو إشارة، فإن علة النهي عن الغيبة هي الإيذاء بتفهيم الغير نقصان المغتاب، فبأي وجه كان هذا الإفهام، فهو غيبة والمراد بما يكره في قوله ﷺ: «ذكرك أخاك بما يكره» بأي شيء يكرهه، سواء كان ذلك يتعلق في دينه أو دنياه، أو خَلْقه أو خُلُقه أو ماله أو ولده، أو زوجته أو مملوكته أو خادمه أو لباسه، أو غير ذلك مما يتعلق به.

ولما كانت الغيبة من الكبائر وجبت التوبة منها، وذلك بالإقلاع عنها، والندم على فعلها، والعزم على عدم العودة إليها، والتحلل منها، لأنها حق آدمي ومظلمة له.

وقد قال رسول الله ﷺ: «من كانت له مظلمة لأحد في عرضه أو شيء فليتحلله اليوم من قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه»[2].

---

(١) مسلم في البر باب: تحريم الغيبة، (٤/٢٠٠١)، رقم (٢٥٨٩).

(٢) البخاري في المظالم، باب: من كانت له مظلمة عند الرجل فحللها له، (٥/٧٣)، رقم (٢٣١٧).

المطلب التاسع – المساواة بين الناس والتفاضل بالتقوى[1]:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

لما بين سبحانه فيما سبق أن المؤمنين إخوة، وأمر بأداء حقوق هذه الأخوة، ونهى عما فيه انتهاك لحرمتها، بين في هذه الآية تأكيد الأخوة الإيمانية التي هي الأصل وتقويتها بالأخوة الإنسانية وأنهم كلهم إخوة خلقوا من أب واحد، وأم واحدة، فهم سواسية، ليس لأحد منهم فضل على غيره ولا أكرمية لأحد ولا رفعة إلا بتقوى الله ﷻ.

وبين تعالى أن التقوى ليست دعوى، وكون الإنسان أتقى من غيره ليست مستندة إلى دعواه،بل مرد ذلك إلى الله تعالى، فقال ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

وقد جعلهم الله شعوباً وقبائل ليتعارفوا فيتآلفوا ويتكاتفوا ويشد بعضهم أزر بعض، ولم يجعلهم كذلك ليتفاخروا على بعضهم ويترفعوا وينقسموا ويتخالفوا.

المطلب العاشر – الإيمان الحقيقي وأماراته[2]:

بين الله تعالى صفات المؤمنين وحقيقة الإيمان بقوله تعالى:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

---

(١) انظر تفسير سورة الحجرات، سراج الدين (٢٧٣) وتهذيب مدارج السالكين، عبد المنعم العربي (٢٩٠) ونيل الأرب في معرفة الأدب، محمود حمدي المرعشي (١٣٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير [الحجرات: ١٥] (٢٢٠/٤)، وتفسير سورة الحجرات، سراج الدين (٣٦٥).

أي إن المؤمنين الصادقين إيماناً صحيحاً خالصاً هم المؤمنون الكمل، الذين صدقوا بالله تعالى ورسوله محمد ﷺ تصديقاً تاماً بالقلب وإقراراً باللسان ثم لم يشكوا ولم يتزلزلوا بل ثبتوا على حال واحدة، هي التصديق المحض، وجاهدوا بالأموال والأنفس حق الجهاد، من أجل طاعة الله وابتغاء مرضاته، قاصدين بجهادهم إعلاء كلمة الله ودينه، أولئك المتصفون بهذه الصفات المذكورة هم الصادقون بالاتصاف بصفة الإيمان والدخول في عداد المؤمنين لا كبعض الأعراب الذين أظهروا الإسلام ولم يطمئن الإيمان في قلوبهم قال رسول الله ﷺ: «المؤمنون في الدنيا على ثلاثة أجزاء، الذين آمنوا بالله ورسوله ﷺ ثم لم يرتابوا، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، والذي يأمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، والذي إذا أشرف على طمع تركه لله عز وجل»(١).

وقد جاء وصف المؤمنين الصادقين في آيات كثيرة من القرآن الكريم، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ٢-٤].

وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ

(١) أحمد في باقي مسند المكثرين، مسند أبي سعيد الخدري، (٣/٨)، رقم (١٠٦٢٨).

ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون: ١-١١].

خاتمة السورة:

تختم السورة بالحديث عن الأعراب الذين ظنوا الإيمان كلمة تقال باللسان، ثم جاؤوا يمنون على النبي ﷺ إيمانهم ونسوا أن الإيمان قول وعمل وجهاد في سبيل الله وتضحية بالنفس والنفيس، وليس مجرد دعوى يدعيها الإنسان.

يقول الله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الحجرات: ١٤-١٨].

وقد رد الله ادعاء الأعراب أنهم مؤمنون بقوله تعالى: ﴿قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾ لأن الإيمان هو التصديق الجازم مع الثقة وطمأنينة القلب، وهذا لم يحصل لهم حينذاك، وإلا لما منوا على الرسول ﷺ إسلامهم، ولما طمحوا إلى الصدقات والعطيات، لذلك قال تعالى لهم: ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ فأثبت لهم الإسلام ونفى عنهم الإيمان مما دل على أنهم أرادوا بإسلامهم الاستسلام ظاهراً خوف

القتل، ولتجري عليهم أحكام المسلمين من حقن الدماء وحفظ الأموال والأعراض وغير ذلك، فقولهم: ﴿ءَامَنَّا﴾هو قول بأفواههم و لم تؤمن قلوبهم، وهذا هو الإسلام ظاهراً وهو صفة المنافقين، ثم بينت الآيات أن الله تعالى يعلم ما في السموات وخفاياها، وما حوته زواياها، ويعلم ما في الأرض وما في خباياها، وما حوت وخفي في بطونها وما في قعر بحورها، وأرجاء برها، وكنوز جبالها، وما في بطون شعابها وأوديتها، ومن جملة ما يعلمه تعالى ما في خفايا نفوس البشر، وضمائر قلوبهم، وخبايا صدورهم.

قال تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥].





الفَصْلُ الثَّانِي

سورة الحجرات بالتفصيل

المبحث الأول

الأدب مع رسول الله ﷺ وعدم التقدم عليه بالأقوال والأعمال

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ۝١﴾

المطلب الأول – الشرح:

ابتدأت السورة الكريمة بتوجيه المؤمنين إلى احترام أوامر الله تعالى وأوامر رسوله ﷺ، وألا يبدوا رأياً أو يقضوا حكماً أو يبرموا أمراً قبل أمر الله وأمر رسوله ﷺ، فإن ذلك من مستلزمات الإيمان وفي هذا الاستهلال نهي واضح عن مخالفة كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، والآية شاملة أيضاً ترتيب مصادر الاجتهاد، عن معاذ بن جبل[1] رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له حين بعثه إلى اليمن: «كيف تقضي إذا عرض لك قضاء؟ قال: أقضي بكتاب الله، قال: فإن لم تجد في كتاب الله؟ قال: فبسنة رسول الله ﷺ، قال: فإن لم تجد في سنة رسول الله ولا في كتاب الله؟ قال: أجتهد رأيي ولا آلو، فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله»[2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ذكر هذا اللفظ في هذه السورة خمس مرات، والمخاطب فيها المؤمنون، والمخاطب به أمر، أو نهي، وذكر فيها:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ مرة، والخطاب فيها يعم المؤمنين، والكافرين، كما أن المخاطب به، وهو قوله: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾ يعمهما؛ فناسب فيها ذكر الناس.

---

(١) معاذ بن جبل الخزرجي: صحابي وأعلم الأمة بالحلال والحرام، ت(١٨)هـ الإصابة: (٣/٤٠٦).

(٢) أبو داود في الأقضية، باب: اجتهاد الرأي في القضاء، (٣/٣٣٠)، رقم (٣٥٩٤).

﴿ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾: من قدم بمعنى: تقدم، وفي الآية استعارة تمثيلية، شبَّه تعجل الصحابة في إقدامهم على قطع الحكم في أمر من أمور الدين بغير إذن الله سبحانه ورسوله ﷺ، بحالة من تقدم بين يدي متبوعه، إذا سار في طريق فإنه في العادة مستهجن، والغرض تصوير كمال الهجنة، وتقبيح قطع الحكم بغير إذن الله ورسوله.

وقيل: ﴿ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ معناه: بحضرهما؛ لأن ما يحضره الإنسان، فهو بين يديه، ناظر إليه.

المطلب الثاني – سبب النزول:

عن نافع بن عمر عن ابن أبي مليكة قال:كاد الخيران أن يهلكا أبو بكر وعمر رضي الله عنهما رفعا أصواهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخي بني مجاشع، وأشار الآخر برجل آخر، فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلا خلافي، قال: ما أردت خلافك، فارتفعت أصواهما في ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ ﴾[1].

المطلب الثالث – الإعراب:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾ (يا): أداة نداء تنوب مناب: أدعو.

(أيها): نكرة مقصودة مبنية على الضم في محل نصب بأداة النداء.

و(ها): حرف تنبيه للتوكيد لا محل له.

﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع بدل من: (أيها).

---

(١) البخاري، باب التقاضي، (١٣٧/٦)، رقم (٤٨٤٥).

﴿لَا﴾: ناهية. ﴿نُقَدِّمُواْ﴾: الجملة الفعلية ابتدائية لا محل لها.

﴿بَيۡنَ﴾: ظرف مكان متعلق بالفعل قبله.

(اتقوا): أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله.

والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: الجملة الاسمية تعليل لما قبلها، لا محل لها.

المطلب الرابع – الفوائد:

١– الآية أصل في ترك التعرض لأقوال النبي ﷺ، وإيجاب اتباعه والاقتداء به.

٢– إن الأخذ على يد الشيخين الصحابيين الجليلين المبشرين بالجنة وهما خير هذه الأمة بعد نبيها ﷺ دليل على حساسية الأمر وأهمية المبدأ، وفي لفظ راوي الحديث: (كاد الخيِّران أن يهلكا أبا بكر وعمر رضي الله عنهما). مايجعل القائل يقول: (إذا كاد الخيران أن يهلكا بمثل هذه المعصية فما بالك بمن هو دونهما في الفضل والإيمان والسبق والمكانة؟!).

فالأمر عظيم إذاً والخطب جلل بلا ريب.

٣– قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، فيه بيان الموقف الذي يجب على المؤمنين أن يقفوه مع رسول الله ﷺ، وهو موقف المقتدي مع الإمام، وموقف التابع في الأمور القولية والفعلية والخلقية والنفسية مع أكمل متبوع، ويسلم له تسليماً في جميع الأمور التي جاء بها من غير اعتراض ولا انتقاد ولا توقف،بعد أن آمن أنه رسول الله ﷺ.

فلا يجوز للمؤمن أن يبتدع أمراً: قولاً أو عملاً ليس له أصل وارد في كتاب الله تعالى أو سنة رسول الله ﷺ، أما ما كان له أصل أو يدخل تحت

قواعد الشريعة المستندة إلى الكتاب والسنة فليس ببدعة، فإن البدعة هي ما لا أصل له في الشرع ولا دليل ولا نظير.

قال الإمام جعفر الصادق ﵁: لو أن قوماً عبدوا الله تعالى، وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وصاموا رمضان، وحجوا البيت ثم قالوا لشيء صنعه رسول الله ﷺ: (ألا صنع خلاف ما صنع)، أو وجدوا في أنفسهم حرجاً مما صنع رسول الله ﷺ لكانوا مشركين كافرين. ثم تلا هذه الآية الكريمة: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

٤- ذكر الله تعالى اسمه ﷻ أولاً ليقرن ذكر رسول الله ﷺ بذكر اسمه، رفعة لذكر رسوله الكريم ﷺ، وإعلاماً بكرامته وشرف مترلته عند الله تعالى، فقال سبحانه: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾. وإن شرف الرسول وكرامته هي تابعة لعظمة مرسله وكرامته ومجده.

٥- اتباع الصحابة لرسول الله ﷺ:

كان الصحابة ﵃ يرون أن الدين هو اتباع النبي ﷺ بلا توقف ولا نظر في جميع أقواله وأفعاله إلا ما قام عليه دليل اختصاصه به ﷺ، ومن أمثلة اتباعهم له ﷺ:

أ- نزعوا خواتيم الذهب لما نزع ﷺ خاتم الذهب، كما جاء عن ابن عمر ﵄ قال: (اتخذ رسول الله ﷺ خاتماً من ذهب وجعل فصه من قبل كفه، فاتخذ الناس خواتيم الذهب، فألقى رسول الله خاتمه، وقال: «والله لا ألبسه أبداً» وألقى الناس خواتيمهم)[١].

---

(١) النسائي، (٥/٤٥٦)، رقم (٩٥٤٦).

ب- عن علي بن ربيعة قال: رأيت علياً ﷺ أُتي بدابة ليركبها، فلما وضع رجله في الركاب قال: بسم الله، فلما استوى عليها قال: الحمد لله ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٣] ثم حمد الله تعالى ثلاثاً، وكبر ثلاثاً، ثم قال: سبحانك لا إله إلا أنت، قد ظلمت نفسي فاغفر لي ، ثم ضحك. فقلت له: مم ضحكت يا أمير المؤمنين؟!! فقال ﷺ: رأيت رسول الله ﷺ فعل مثل ما فعلت ثم ضحك، فقلت له: مم ضحكت يا رسول الله ؟ فقال ﷺ: «يعجب الرب من عبده إذا قال: رب اغفر لي، ويقول: علم عبدي أنه لا يغفر الذنوب غيري»(١).

ج- عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: بينما رسول الله ﷺ يصلي بأصحابه إذ خلع نعليه فوضعهما عن يساره فلما رأى ذلك القوم ألقوا نعالهم، فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته قال: «ما حملكم على إلقائكم نعالكم؟» قالوا: رأيناك ألقيت نعليك فألقينا نعالنا. فقال ﷺ: «إن جبريل ﷺ أتاني فأخبرني أن فيهما قذراً، وقال: إذا جاء أحدكم المسجد فلينظر فإن رأى في نعليه قذراً أو أذى فليمسحه وليصل فيهما»(٢).

❁ ❁ ❁

---

(١) أحمد، باب مسند علي بن أبي طالب رضي الله عنه، (١/٩٧)، رقم (٧٥٣).

(٢) أبو داود، باب الصلاة في النعل، (١/٢٤٧)، رقم (٦٥٠).

(يا) في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾

(يا) في اللغة موضوعة للبعيد مكاناً أو رتبة، وقد جرت عادة الله تعالى في ندائه لعباده أن يناديهم بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ...﴾ لا للبعد المكاني، وإنما هو من باب تعالي مقام الرب، وعزة سيادة ألوهيته سبحانه.

أ- نداء العباد لربهم عز وجل:

يأتي نداء العباد ودعاؤهم ربهم غالباً بحذف أداة النداء، فقد ذكر الله تعالى دعاء الأنبياء والأولياء والمؤمنين.

فقال تعالى مخبراً عن دعاء أبينا آدم عليه السلام: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وقال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾﴾ [نوح: ٢٨].

وقال تعالى عن الخليل عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم: ٤١].

وهكذا الكليم عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ [القصص: ١٦].

وأخبر سبحانه عن دعاء أوليائه،فقال تعالى في أصحاب الكهف: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠]. وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

وقال تعالى في دعاء المؤمنين: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٩].

فكلهم دعوه باسم الرب سبحانه، لأنه ربهم، وهو خالقهم ومربيهم، وأرحم بهم من أنفسهم، وأعلم بما يصلح شأنهم، ويصلح بالهم، دعوه سبحانه ولم يذكروا أداة النداء وهي (يا) استشعاراً بقربه سبحانه، وتحققاً بالأدب الذي أرشدهم إليه حيث قال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وما ورد من الدعاء بـــ (يا رب) فقد يلاحظ الداعي بذلك ذلّه وبعده عن عزة مقام الألوهية، وسلطان مقام الرب سبحانه.

ب – نداء الله تعالى لعباده:

النداء بـــ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ أقوى في التنبيه إلى ما سيلقى على الناس بعدَ النداء، وليعلموا أنه أمر عظيم يجب الانتباه إليه والتحقق بما يتطلبه. فقولك: يا أيها الرجل، أقوى في التنبيه من: يا رجل.

إن كل من تدبر في آيات القرآن الكريم يعلم أن الخطابات الإلهية التي فيها إرشادات الله تعالى لعباده، والتي فيها الأوامر والمناهي ونحو ذلك، جاءت على أنواع من الصفات والنعوت، فيقول سبحانه: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾، ويقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، ويقول ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

١– خطاب الله سبحانه لعباده بوصف **بني آدم:** يدل على أن ما وراء ذلك أمر عام، وحكم شامل لجميع بني آدم.

يقول سبحانه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٥ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٦﴾ [الأعراف: ٣٥-٣٦].

٢- أما الخطاب بوصف **الناس:** فقد يراد به جميع الناس من المؤمنين وغيرهم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

وقد يراد به المشركون، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣]. وكثيراً ما كانت تنـــزل الخطابات الإلهية بصفة الناس في مكة المكرمة، وقد نزل منها الكثير في المدينة، كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١] وقوله تعالى في سورة الحجرات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣].

٣- الخطابات الإلهية بصفة **الإيمان:** هذه الخطابات موجهة للمؤمنين، ومن ذلك قوله تعالى في سورة الحجرات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ جاء ذلك خمس مرات في هذه السورة الكريمة.

وفي الخطاب بهذه الصفة وجوه من الحكم:

أولاً: تشريفه وتكريمه سبحانه لعباده المؤمنين.

ثانياً: تحريض للمؤمنين وحث للاهتمام بما يليه من الأوامر أو المناهي.

ثالثاً: فيه بيان أن ما سيلقيه عليهم بعد هذا النداء يجب عليهم أن يسارعوا إلى تطبيقه والتحقق به، ائتماراً بالأمر، وانتهاء في النهي، لأن ذلك هو مقتضى إيمانهم الذي اتصفوا به، وبذلك يتبين الصادق في الإيمان من المنافق الكاذب.

وأن الواجب عليهم أن يكونوا مطيعين متبعين لما جاء عن الله تعالى، وما جاء به رسول الله ﷺ مقتدين به ﷺ في جميع الأمور، دون أن يُحدثوا شيئاً من تلقاء أنفسهم أو يتكلموا في أمر ما قبل كلامه ﷺ.

قال رجل لابن مسعود رضي الله عنه: أوصني، فقال له: إذا سمعت الله عز وجل يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فأصغ إليها سمعك، فإنه خير توصى به، أو شر تصرف عنه[1].



(١) البيهقي، فصل في إحضار القارئ قلبه ما يقرأه و التفكر فيه، (٢/٣٦١)، رقم (٢٠٤٥).

المبحث الثاني

الأدب بالحديث مع رسول الله ﷺ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾

المطلب الأول – الشرح:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا...﴾: نادى الله تعالى المؤمنين الصادقين ثانية، استدعاء منهم لتجديد الاستبصار عند كل خطاب وارد، وتحريك هممهم، لئلا يغفلوا عن تأملهم. والمعنى: لا تجعلوا كلامكم مرتفعاً على كلام النبي ﷺ في الخطاب، وذلك لأن رفع الصوت دليل على قلة الاحتشام، وترك الاحترام، وقوله تعالى في الآية السابقة: ﴿لَا تُقَدِّمُوا...﴾ نهي عن فعل، وقوله هنا: ﴿لَا تَرْفَعُوا...﴾ نهي عن قول.

﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ...﴾، أمرهم الله تعالى أن يبجلوه، ويفخموه، ويعظموه، ولا يرفعوا أصواتهم عنده، ولا ينادوه كما ينادي بعضهم بعضاً، فيقول: يا محمد، بل يقولون: يا رسول الله! يا نبي الله! قال تعالى:

﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣].

﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ أي: مخافة أن تحبط أعمالكم.

والحَبَطُ: آثارُ الجُرْحِ أَو السِّياطِ بالبَدَنِ، وحَبِطَ الجُرْحُ حَبَطاً بالتَّحريكِ: نُكِسَ. وحَبِطَ الجُرْحُ: إِذا بقِيَتْ له آثارٌ بعدَ البُرْءِ.

وحبط عمله يحبَط حبْطاً وحبوطاً: بطلَ ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

وتقول: حبط فلان عن فلان: أي أعرض.

﴿وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾: وأنتم لا تعلمون.

ومعنى الآية: إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده ﷺ خشية أن يغضب من ذلك، فيغضب الله لغضبه، فيبطل الله عمل من أغضبه وهو لا يدري، كما جاء في الحديث: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى، لا يُلقي لها بَالا يكتب له بها الجنة. وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سَخَط الله لا يُلقي لها بالا يَهْوِي بها في النار أبعد ما بين السموات والأرض»[١].

المطلب الثاني – سبب النزول:

روي عن علي ﵁ قال: نزل قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ فينا لما ارتفعت أصواتنا أنا وجعفر وزيد بن حارثة، نتنازع ابنة حمزة لما جاء بها زيد من مكة، فقضى بها رسول الله ﷺ لجعفر، لأن خالتها عنده[٢].

حدث بعد نزول الآية:

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما نزلت هذه الآية قال أبو بكر ﵁: يا رسول الله والله لا أكلمك إلا السرار، أو أخا السرار، حتى ألقى الله. وعن

---

(١) أحمد، (٥/٣٨٦)، رقم (٢٣٦٦٧).

(٢) عن علي بن أبي طالب ﵁ قال: خرج زيد بن حارثة إلى مكة فقدم بابنة حمزة، فقال جعفر: أنا آخذها، أنا أحق بها، هي ابنة عمي، وعندي خالتها، وإنما الخالة أم، وقال علي: أنا أحق بها هي ابنة عمي، وعندي ابنة رسول الله ﷺ، فهي أحق بها، وقال زيد: أنا أحق بها، هي ابنة أخي وإنما خرجت إليها، وسافرت وقدمت بها، فقضى بها رسول الله ﷺ لجعفر وقال: الخالة أم. أخرجه أبو داود.

عمر ﷺ: أنه كان يكلم النبي ﷺ بعد ذلك كأخي السرار، لا يسمعه حتى يستفهمه، وروي أيضاً: لما نزلت الآية الكريمة قعد ثابت بن قيس بن شماس[1] في بيته، وكان جهوري الصوت، وقال: أنا من أهل الآية، واحتبس عن النبي ﷺ، فسأل عنه النبي ﷺ سعد بن معاذ ﷺ فقال: «يا أبا عمرو ما شأن ثابت، أيشتكي؟» فقال سعد ﷺ: إنه لجاري، وما علمت له شكوى، قال فأتاه سعد فذكر له قول الرسول ﷺ، فقال ثابت ﷺ: نزلت هذه الآية، ولقد علمتم أني من أرفعكم صوتاً على رسول الله ﷺ، فأنا من أهل النار، فذكر ذلك سعد للنبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «بل هو من أهل الجنة»[2].

زاد في رواية: (فكنا نراه يمشي بين أظهرنا رجل من أهل الجنة).

وفي رواية أخرى: فقال رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا ثابت؟»

فقال: أنا صيّت وأتخوف أن تكون هذه الآية نزلت فيّ، فقال رسول الله ﷺ: «أما ترضى أن تعيش حميداً، وتقتل شهيداً، وتدخل الجنة».

فقال: رضيت ببشرى الله ورسوله، لا أرفع صوتي على رسول الله ﷺ أبداً، فنـــزلت الآية التالية.

فقال أنس ﷺ: فكنا ننظر إلى رجل من أهل الجنة يمشي بين أيدينا، فلما كان يوم اليمامة في حرب مسيلمة، رأى ثابت ﷺ من المسلمين بعض

---

(١) ثابت بن قيس بن شماس الخزرجي يكنى أبا محمد بابنه محمد. وقيـــل: أبـــا عبـــد الرحمن. قتل له يوم الحرة ثلاثة من الولد: محمد، ويحيى، وعبد الله. وكان خطيبـــاً بليغاً معروفاً بذلك، كان يقال له: خطيب رسول الله ﷺ، كما يقـــال لحـــسان: شاعر رسول الله ﷺ.

(٢) مسلم، باب مخافة المؤمن أن يحبط عمله، (١/ ١١٠)، رقم (١٨٧).

انكسار، وانهزمت طائفة منهم، فقال: أفٍّ لهؤلاء، ثم قال ثابت لسالم مولى أبي حذيفة: ما كنا نقاتل أعداء الله مع رسول الله ﷺ مثل هذا، ثم ثبتا، وقاتلا حتى قتلا، واستشهد ثابت وعليه درع، فرآه رجل من الصحابة رضي الله عنهم بعد موته في المنام، فقال له: اعلم أن درعي عند فلان رجل من المسلمين نزعه مني، فذهب به، وهو في ناحية من العسكر عند فرس يستن في طِوَله، فأت خالد ابن الوليد، فأخبره حتى يسترد درعي، وائت أبا بكر، وقل له: إن عليّ ديناً حتى يقضيه عني، وفلان من رقيقي عتيق، فأخبر الرجل خالداً فوجد الدرع والفرس على ما وصفه، فاسترد الدرع، وأخبر خالد أبا بكر بتلك الرؤيا، فأجاز أبو بكر رضي الله عنه وصيته. قال مالك ابن أنس: لا أعلم وصية أجيزت بعد موت صاحبها إلا هذه.

المطلب الثالث – الإعراب:

﴿فَوۡقَ﴾: ظرف مكان متعلق بما قبله.

﴿كَجَهۡرِ﴾: متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق محذوف، التقدير: جهراً كائناً كجهر.

﴿لِبَعۡضٍ﴾: متعلقان بالمصدر قبلهما، والمصدر المؤول من ﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَـٰلُكُمۡ﴾ في محل جر بالإضافة لمفعول لأجله محذوف، التقدير: كراهية إحباط أعمالكم، أو على تقدير: لئلا تحبط.

﴿وَأَنتُمۡ﴾ الواو: واو الحال. (أنتم): ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ، والجملة الفعلية ﴿لَا تَشۡعُرُونَ﴾ في محل رفع خبره.

والجملة الاسمية في محل نصب حال من الكاف الواقعة في محل جر بالإضافة في ﴿أَعۡمَـٰلُكُمۡ﴾.

المطلب الرابع – الفوائد:

١– في الآية دليل على أنهم لم ينهوا عن الجهر مطلقاً حتى لا يسوغ لهم إلا أن يكلموه بالهمس والمخافتة، وإنما نهوا عن جهر مخصوص مقيد بصفة، وهو الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه منهم فيما بينهم، وهو الخلو من مراعاة عظمة النبوة وجلالة مقدارها وانحطاط سائر الرتب وإن جلت عن رتبتها.

٢– مواضع يستثنى فيها جواز رفع الصوت أمام رسول الله ﷺ:

أ– ليس الغرض برفع الصوت ولا الجهر ما يقصد به الاستخفاف والاستهانة، لأن ذلك كفر والمخاطبون مؤمنون. وإنما الغرض صوت غير مناسب لما يهاب به العظماء ويوقر الكبراء، فيتكلف الغض منه ورده إلى حد يميل به إلى ما يستبين فيه المأمور به من التعزير والتوقير ﴿**لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا**﴾ [الفتح: ٩].

ب– لم يتناول النهي أيضاً رفع الصوت الذي لا يتأذى به رسول الله ﷺ، وهو ما كان منهم بالأذان أو في حرب أو مجادلة معاند أو إرهاب عدو أو ما أشبه ذلك، مما لا يوهم الإيذاء أو الاستهانة، بل فيه ما يُرضي رسول الله ﷺ وما يسره ففي الحديث أنه قال عليه السلام للعباس بن عبد المطلب لما انهزم الناس يوم حنين: «اصرخ بالناس»، وكان العباس أجهر الناس صوتاً[١].

---

(١) ففي صحيح مسلم أن النبي ﷺ أمر عمه العباس رضي الله عنه يوم حنين أن ينادي بصوت عال، فقال له: (يا عباس ناد يا معشر الأنصار، يا أصحاب السمرة يا أصحاب سورة البقرة). وكان العباس رجلاً صيتاً، ولذا خصه ﷺ بالنداء – قيل كان يُسمع صوته من بعد ثمانية أميال–. قال العباس رضي الله عنه: وكنت رجلاً صيتاً فناديت بأعلى صوتي: يا أصحاب السمرة –يعني: شجرة الرضوان التي بايعوا رسول الله ﷺ=

٣- ﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ لا تعني الآية أن يكفر الإنسان وهو لا يعلم، فكما لا يكون الكافر مؤمناً إلا باختياره الإيمان على الكفر، كذلك لا يكون المؤمن كافراً من حيث لا يقصد إلى الكفر ولا يختاره بإجماع، أي لابد من القصد في الإساءة والإصرار عليها بعد التنبيه حتى يعد كافراً.

٤- في هذه الآية بيان وجوه من الأدب مع سيدنا رسول الله ﷺ، وذلك أن فيها النهي عن التجاوز في كيفية القول عند النبي ﷺ، بعد النهي عن التجاوز في نفس القول والعمل والتقدم عليه بذلك في الآية السابقة، فها هنا نوعان:

أ- النهي مع التحذير الشديد.

ب- الوعيد والتهديد لمن يقع في ذلك، وهو حبوط الأعمال مهما عظمت وكثرت وكبرت.

٥- أعاد سبحانه النداء مع (أيها) مع قرب العهد بالنداء الأول وذلك للمبالغة في الإيقاظ والتنبيه.

=تحتها على أن لا يفروا ولا ينهزموا عنه، فجعل العباس رضي الله عنه ينادي بأعلى صوته يا أصحاب السمرة وجعل يقول أيضاً: يا أصحاب سورة البقرة وخصت بالذكر لأن فيها قوله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةً كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩] وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ﴾ [البقرة: ١٧٧] وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ﴾ [البقرة: ٢٠٧]. فلما سمع المسلمون صوت العباس رضي الله عنه أقبلوا كأنهم الإبل إذا حنّت على أولادها.

٦- أعاد وصفهم بالإيمان بقوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ ليعلموا حقاً أن القضية متعلقة بأصل الإيمان.

٧- نهى الله تعالى المؤمنين أن يعاملوا رسول الله ﷺ في الجهر بالقول معاملة الأقران لبعضهم بعضاً، من حيث المساواة في أصواتهم، بل يجب الغض والخفض تهيباً وتعظيماً له ﷺ، وإجلالاً لمقام نبوته الخاتمة.

ويدخل في هذا النهي التحذير من مخاطبته باسمه أو كنيته، كما يخاطب بعضهم بعضاً، بل يجب أن يكون خطابهم إياه بأوصاف التكريم والتعظيم، فلا يقولوا: يا محمد، أو يا أحمد، بل يقولون: يا رسول الله، يا نبي الله.

وقد استدل العلماء بهذه الآية الكريمة على عدة أمور، أهمها:

أ- المنع من رفع الصوت في مسجده ﷺ، وعند قبره الشريف ﷺ، وذلك لأنه حي في قبره الشريف ﷺ حياة أقوى وأعظم من حياة أهل الدنيا، كما دلت على ذلك الأحاديث الشريفة.

أولاً- الأنبياء أحياء: قال رسول الله ﷺ: «أتيت على موسى ليلة أسري بي عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلي في قبره»[١]. فالأنبياء أحياء في قبورهم يصلون، وقد اجتمع ﷺ ليلة الإسراء بالأنبياء وصلى بهم إماماً، كما قال ﷺ: «فحانت الصلاة فأممتهم»[٢].

ثانياً- بلوغه ﷺ صلاة المصلّين والمسلّمين عليه: فعن علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «حيثما كنتم فصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني»[٣].

---

(١) مسلم، باب فضائل موسى عليه السلام، (١٠٢/٧)، رقم (٦٣٠٦).

(٢) مسلم، باب في ذكر المسيح ابن مريم، (١٠٨/١)، رقم (٤٤٨).

(٣) أبو داود، باب زيارة القبور، (٦٢٢/١)، رقم (٢٠٤٢).

ب- **المنع من رفع الصوت عند قراءة حديثه** ﷺ: فإن حرمة النبي ﷺ بعد وفاته كحرمته قبلها، وكلامه المأثور عنه ﷺ بعد وفاته في الرفعة مثل كلامه المسموع من لفظه ﷺ، فإذا قرئ كلامه وجب على كل حاضر أن لا يرفع صوته عليه، ولا يعرض عنه، بل يجب الإقبال عليه والإصغاء إليه كما كان يلزمه ذلك في مجلسه ﷺ عند تلفظه به.

ج- **عند قراءة سيرته الشريفة** وبيان أوصافه وشمائله الحميدة، وخصاله المجيدة عند قراءة قصة مولده الشريف.

د- **عند سماع المدائح النبوية**، كما يجب على المادحين مراعاة الأدب والتكريم والتعظيم له ﷺ.

قال الإمام العلامة القسطلاني وغيره رحمهم الله تعالى: إذا كان رفع الأصوات فوق صوته موجباً لحبوط الأعمال فما الظن برفع الآراء ونتائج الأفكار على سنته ﷺ وعلى ما جاء به؟!.

هـ- كره العلماء رفع الصوت **في مجالس العلم** تشريفاً للعلماء ولعلمهم الذي ورثوه عن رسول الله ﷺ.

٨- نداء الله تعالى للأنبياء في القرآن الكريم:

نادى الله سبحانه جميع الأنبياء بأسمائهم، ولكنه نادى حبيبه الأكرم ﷺ بألقاب التكريم بالنبوة والرسالة ونحوهما.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤٥].

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقال تعالى ملاطفاً له ﷺ بالخطاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل: ١].

وقال جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١].

وأما سائر الأنبياء والمرسلين عليهم السلام فإنه سبحانه ناداهم بأسمائهم.

قال تعالى: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ﴾ [هود: ٤٦].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ﴾ [هود: ٧٦].

وقال تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النمل: ٩].

وقال جل وعلا: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ﴾ [المائدة: ١١٦].



المبحث الثالث

جزاء الأدب مع رسول الله ﷺ

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾

المطلب الأول – الشرح:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾: نزلت هذه الآية الكريمة في مدح المسلمين الذين أدبتهم الآيتان السابقتان، وعلى رأسهم الصديق والفاروق وثابت بن قيس رضي الله عنهم أجمعين.

ومعنى غض الصوت: خفضه وعدم الجهر به.

﴿ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴾:

الامتحان والمحنة في لغة العرب هو: استخلاص الشيء وتصفيته،

كقولك: امتحنت الفضة أي اختبرتها حتى خلصت، وامتحنت الذهب أي: اختبرته في النار حتى خلص الذهب الإبريز.

والمعنى: الذين يخفضون أصواتهم عند رسول الله ﷺ، وهم يتكلمون في حضرته إجلالاً واحتراماً، هم الذين ابتلى الله قلوبهم بالمحن والتكاليف الشاقة، حتى تطهرت وصفت بما كابدته من الصبر على المشاق، وهؤلاء لهم مغفرة من ربهم لذنوبهم، ولهم ثواب عظيم على غضهم أصواتهم عند النبي ﷺ احتراماً منهم له، وتعظيماً لقدره.

والتقوى: حفظ النفس من العذاب الأخروي بامتثال أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه، لأن أصل المادة من الوقاية، وهي الحفظ والتحرز من

المهالك في الدنيا والآخرة، وقد وصف الله تعالى المتقين في كثير من آيات القرآن الكريم، مثل قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [البقرة: ١-٥]

﴿ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحجرات: ٣] الغفر في اللغة هو: الستر والتغطية، يقال: غفر الله تعالى لك غفراً وغفراناً ومغفرة.

فالمغفرة: إلباس الله تعالى ثوب عفوه للمذنب. وقد قال تعالى: ﴿ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

المطلب الثاني - الإعراب:

﴿ إِنَّ ﴾: حرف مشبه بالفعل.

﴿ ٱلَّذِينَ ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب اسمها.

﴿ يَغُضُّونَ ﴾: مضارع مرفوع، والواو فاعله، والجملة صلة الموصول لا محل لها.

﴿ أَصۡوَٰتَهُمۡ ﴾: مفعول به، والهاء في محل جر بالإضافة.

﴿ عِندَ ﴾: ظرف مكان متعلق بالفعل قبله.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾: اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ.

﴿ ٱلَّذِينَ ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل رفع خبر ﴿ إِنَّ ﴾.

﴿ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾: الجملة صلة الموصول لا محل لها.

﴿لِلتَّقۡوَىٰ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما وعلامة جره كسرة مقدرة على الألف للتعذر، والجملة الاسمية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ ابتدائية، أو مستأنفة لا محل لها.

﴿لَهُم﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم.

﴿مَّغۡفِرَةٌ﴾: مبتدأ مؤخر. والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها.

المطلب الثالث- الفوائد:

١- في هذه الآية دليل على أن حقيقة التقوى لا يظفر بها الأتقياء مهما عملوا من الطاعات، وتباعدوا عن المخالفات، إلا بعد التحقق بمقام الأدب الكامل مع سيدنا محمد ﷺ والتحقق بمقام ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٩] أي: تعظموه وتفخموه ﷺ.

إن غض الصوت عنده ﷺ والتزام الأدب معه أخلصُ مقامات التقوى وأصدقها وأنقاها.

٢- في الآية الكريمة دليل واضح يدل على أن مجالسة رسول الله ﷺ لها شرفها الأعلى ومجدها الأرفع، ولذلك أوجب سبحانه على من كان عنده ﷺ حقوقاً خاصة، وآداباً يجب مراعاتها وعدم التساهل فيها، وقد كان الصحابة ﵃ إذا جلسوا عنده ﷺ كأن على رؤوسهم الطير، ومن مشاهد توقيرهم وأدبهم معه ﷺ ما رواه أنس ﵁ «أن أبواب النبي ﷺ كانت

تقرع بالأظافير»[1]، وكانوا يفعلون ذلك خوفاً من إزعاجه وإساءة الأدب معه ﷺ.

٣- للذنوب آثار مظلمة في نفس المذنب وقلبه ومكانه، ولها تسجيل وكتابة في صحيفة أعماله فإذا غفر الله تعالى للعبد ذنوبه ستر جميع ذلك، وغطاه بمحو آثارها ومحو كتابتها.

٤- في قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ دليل على أن أهم ما يهم المؤمنين، وأكبر مطلوب عندهم هو مغفرة الله تعالى لهم، وأعظم مرغوب يرغبون فيه هو دخولهم جنة الله تعالى التي فيها التجلي برضوانه الأكبر، وفيها رؤية الحق سبحانه، وفيها مقعد الصدق عند مليك مقتدر، ففي غفر ذنوبهم أمنوا من عذاب الله وغضبه، وفي الأجر العظيم دخلوا دار السلام والكرامة.



(١) البيهقي، باب في تعظيم النبي ﷺ وإجلاله وتوقيره، (٢/٢٠٠)، رقم (١٥٣٠).

المبحث الرابع

لا يرفع الصوت مع رسول الله ﷺ إلا الذين لا يعقلون

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾

المطلب الأول – الشرح:

الوراء: الجهة التي يواريها عنك الشخص بظله من خلف أو قدام، وإن المناداة نشأت من ذلك المكان.

والحُجُرات: جمع الحُجْرة، كالغُرُفات جمع غُرْفة، والظلمات جمع ظلمة. وقيل: الحُجُرات: جمع الحُجُر، والحُجُر جمع حُجْرة، فهو جمع الجمع.

والحجرة: الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوط عليها، وهي (فُعلَة) بمعنى مفعولة، كالقبضة بمعنى مقبوضة.

وأصل الكلمة المنع، وكل ما منعتَ أن يوصل إليه فقد حجرت عليه.

وسميت الغرفة حجرة لامتناع فيها، فلا يدخلها أجنبي إلا بإذن واستئذان.

والمراد: حجرات نساء رسول الله ﷺ، وكانت لكل منهن حجرة، ومناداتهم من ورائها لعلهم تفرقوا على الحجرات متطلبين له، أو نادوه من وراء الحجرة التي كان ﷺ فيها، ولكنها جمعت إجلالاً لرسول الله ﷺ، والفعل وإن كان مسنداً إلى جميعهم، فإنه يجوز أن يتولاه بعضهم، وكان الباقون راضين، فكأنهم تولوه جميعاً.

﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥﴾

معنى الآية: لو انتظروا خروجك لكان أصلح لهم في دينهم ودنياهم، وكان ﷺ لا يحتجب عن الناس إلا في أوقات يشتغل فيها بمهمات نفسه، فكان إزعاجه في تلك الحالة من سوء الأدب.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾: بليغ الغفران والرحمة واسعها، فلن يضيق غفرانه ورحمته عن هؤلاء إن تابوا وأنابوا.

المطلب الثاني- سبب النزول:

نزلت الآية الكريمة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ﴾ في وفد بني تميم أتوا رسول الله ﷺ وقت الظهيرة، وهو راقد وفيهم الأقرع بن حابس، وعيينة بن حصين، ونادوا النبي ﷺ من وراء حجراته، وقالوا: اخرج إلينا يا محمد فإن مدحنا زين وذمنا شين، فاستيقظ وخرج إليهم، وقال ﷺ: «ذاك الله عز وجل»[1].

المطلب الثالث- الإعراب:

﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل.﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾.

﴿يُنَادُونَكَ﴾: مضارع مرفوع والواو فاعله والكاف مفعوله، والجملة الفعلية صلة الموصول لا محل لها.

﴿مِن وَرَآءِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿ٱلۡحُجُرَٰتِ﴾: مضاف إليه.

﴿أَكۡثَرُهُمۡ﴾: مبتدأ، والهاء في محل جر بالإضافة، وجملة: ﴿لَا يَعۡقِلُونَ﴾ في محل رفع خبره، والجملة الاسمية ﴿أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ في محل خبر ﴿إِنَّ﴾.

والجملة الاسمية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ ...﴾ لا محل لها لأنها مبتدأة أو مستأنفة.

---

(١) الترمذي، (٥/٣٨٧)، رقم (٣٢٦٧).

﴿وَلَوۡ﴾: الواو: استئناف. (لو): حرف امتناع لامتناع وهي حرف شرط.

﴿أَنَّهُمۡ﴾: حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمها.

﴿صَبَرُواْ..﴾ الجملة الفعلية في محل رفع خبرها، وأن واسمها وخبرها في تأويل مصدر على أحد وجهين:

أ- في محل رفع فاعل لفعل محذوف، والتقدير: ولو ثبت صبرهم أو حصل ونحوه.

ب- في محل رفع بالابتداء والخبر محذوف، التقدير: ولو صبرهم ثابت أو حاصل. والفعل المقدر وفاعله المؤول جملة ابتدائية لا محل لها من الإعراب.

﴿حَتَّىٰ﴾: حرف غاية وجر تقدر بعدها أن المضمرة.

﴿تَخۡرُجَ﴾: فعل مضارع منصوب بـــ: أن المضمرة، والفاعل مستتر تقديره أنت.﴿إِلَيۡهِمۡ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، وأن المضمرة والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل جر بـــ: ﴿حَتَّىٰ﴾، والتقدير (حتى خروجك) والجار والمجرور متعلقان بالفعل ﴿صَبَرُواْ﴾.

﴿لَكَانَ﴾: اللام: واقعة في جواب ﴿وَلَوۡ﴾.

(كان): فعل ماض ناقص، واسمه ضمير مستتر يعود إلى مصدر الفعل ﴿صَبَرُواْ﴾، التقدير: كان الصبر.﴿خَيۡرًا﴾: خبر كان.

﴿لَّهُمۡۚ﴾: متعلقان بـــ:﴿خَيۡرًا﴾.

المطلب الرابع - الفوائد:

١- جاءت الآيات ناهية عن إزعاج رسول الله ﷺ، ومنبهةً إلى السلوك اللائق وهو انتظار النبي ﷺ حتى يخرج للمسلمين حين يكون مستعداً لهم

متفرغاً لهم وغير منشغلٍ عنهم بأمور أخرى، فإن ذلك أدعى لتحقيق مصالح المسلمين من جهة، ومراعاة احترام النبي ﷺ من جهة أخرى، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا﴾.

٢- ورود الآية على النمط الذي وردت عليه، فيه وجوه من إجلال رسول الله ﷺ، منها:

أ – التسجيل على الصائحين به بالسفه والجهل.

ب- إيقاع لفظ الحجرات كناية عن موضع خلوته ومقيله مع بعض نسائه.

ج- التعريف باللام دون الإضافة (الحجرات).

٣- ابتدأت الآيات بإيجاب أن تكون الأمور التي تنتمي إلى الله تعالى ورسوله ﷺ متقدمة على الأمور كلها من غير تقييد.

٤- عقب ذلك النهي عما هو من جنس التقديم من رفع الصوت والجهر، كأن الأول تمهيد للثاني.

٥- أثنى على الغاضين أصواتهم ليدل على عظم موقعه عند الله تعالى.

٦- عقب ذلك بما هو أشد، وهجنته أكبر وهو الصياح برسول الله ﷺ في حال خلوته من وراء الجدر، كما يصاح بأهون الناس قدراً لينبه على فظاعة ما تجرأ عليه أولئك الذين صاحوا، لأن من رفع الله قدره عن أن يجهر له بالقول، كان صنيع هؤلاء معه، من المنكر الذي بلغ في التفاحش مبلغاً عظيماً.

٧- لماذا قال تعالى: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾؟

أ- ربما لأن الذين نادوا هم بعض منهم وليس كلهم، فلم يعمم الحكم عليهم جميعا بالجهل بل كان المعنى: ((إن الذين ينادونك من جملة قومٍ الغالب عليهم الجهل)).

ب- وقيل: إن الحكم على الأكثر دون الكل بأنهم لا يعقلون يُحتمل أن منهم من لم يقصد ترك الأدب، بل نادى لأمر ما بدون جفوة ولا رفع صوت، أو أكثرهم الذين نادوا، وبعضهم سكتوا وكانوا راضين بذلك النداء وهذان القسمان هم الأكثر، وهناك من سكت وهو غير راض بما جرى وهم أقلهم.

٨- لماذا عبر القرآن الكريم بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿**يُنَادُونَكَ**﴾ ولم يعبر بالماضي (نادوك)؟

لأجل تحضير الصورة الماضية للسامع، وكأنها تحدث الآن بحيث تجعل السامع في غرابة واستقباح ونفرة لما فعله هؤلاء من النداء بالصوت الجافي من وراء الحجرات.

٩- روى ابن سعد عن سعيد بن المسيب أنه كان يقول: والله لوددت أنهم تركوا الحجرات على حالها لكي ينشأ ناس من أهل المدينة ويقدم القادم من أهل الآفاق فيرى ما اكتفى به رسول الله ﷺ في حياته، فيكون ذلك مما يزهِّد الناس في التكاثر والتفاخر في الدنيا.



المبحث الخامس

خبر الفاسق

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾

المطلب الأول - الشرح:

﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ﴾: الفسق في اللغة: هو الخروج عن الشيء.

والفسْق: العصيان والترك لأمر الله عز وجل والخروج عن طريق الحق.

والفُسوق الخروج عن الدين، وكذلك الميل إلى المعصية.

وفَسَق عن أمر ربه أَي جار ومال عن طاعته.

فإن كان خرج عن العقائد الإيمانية فهو الكفر.

وإن كان خرج عن الواجبات الدينية أو وقع في المنهيات المحرمة شرعاً فهو العصيان.

والفاسق شرعاً تطلق لعدة معان: الكذاب، و المعلن بالذنب، والذي لا يستحيي من الله ﷻ.

﴿بِنَبَإٍ﴾: النبأ: خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن، ولا يقال للخبر في الأصل نبأ حتى يتضمن هذه الأشياء الثلاثة، وحق الخبر الذي يقال فيه نبأ أن يتعرى عن الكذب، كأخبار القرآن الكريم وخبر النبي ﷺ، والخبر المتواتر. وقد يتضمن النبأ معنى الخبر فيقال: أنبأته بكذا كقولك أخبرته بكذا.

وقد يتضمن معنى العلم فيقال: أنبأته كذا كقولك أعلمته كذا.

وقوله تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ أي أنه إذا كان الخبر شيئاً عظيماً له قدر فحقه أن يتوقف فيه، وإن غلب على الظن صحته حتى يعاد النظر فيه.

﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ التبين هو طلب البيان، والتعرف لصحة النبأ.

﴿نَٰدِمِينَ﴾ أي: آسفين على ما فعلتم، ومغتمين غماً كبيراً لازماً لكم، ومتمنين أنه لم يقع ذلك منكم.

فالندم لغة: يدل على الأسف والغم على وقوع شيء مع تمني عدم وقوعه. وهو غم يصحب الإنسان صحبة لها دوام ولزام، لأنه كلما تذكر المتندَّم عليه راجعه.

ومادة (الندم) تشعر باللزوم، كما أن جميع تصاريف حروف الندم تُشعر باللزوم، ومن ذلك قولهم: مدن أي: لزم الإقامة، ومنه المدينة أي: موضع الإقامة، ويقال: أدمن الشيء أي: أدام فعله.

معنى الآية: في هذه الآية يأمر الله تعالى المؤمنين بأن لا يتعجلوا في حسم الأمور وتصديق الأخبار التي يأتيهم بها أناس فسقة، غير مأمونين في خلقهم ودينهم وروايتهم، لأن من لا يبالي بالفسق فهو أجدر بأن لا يبالي بالكذب، ولا يتحاماه، وقد يؤدي التعجيل في تصديق الأنباء التي ينقلها الفساق إلى إصابة أناس أبرياء بأذى، والمؤمنون يجهلون حالهم، فيكون ذلك الإيذاء سببا لندامتهم على ما فرط منهم.

المطلب الثاني – سبب النزول:

نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط، فقد روى سعيد عن قتادة أن النبي ﷺ بعث الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق يأخذ صدقات أموالهم[1]، فلما أبصروه أقبلوا نحوه فهابهم وفي رواية: لإحنة (مشكلة)كانت بينه وبينهم، فرجع إلى النبي ﷺ فأخبره أنهم قد ارتدوا عن الإسلام، فبعث نبي الله ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه وأمره أن يتثبت ولا يعجل، فانطلق خالد رضي الله عنه حتى أتاهم

(١) البيهقي، (٢/٢٧٤)، رقم (٦٧٩).

ليلاً، فبعث عيونه فلما جاؤوا أخبروا خالداً رضي الله عنه أنهم متمسكون بالإسلام، وسمعوا أذانهم وصلاتهم، فلما أصبحوا أتاهم خالد ورأى صحة ما ذكروه، فعاد إلى نبي الله ﷺ فأخبره، فنـــزلت الآية الكريمة.

وقال العلماء: ((الآية عامة نزلت لبيان التثبت، وترك الاعتماد على قول الفاسق. وهذا أولى من حمل الآية على رجل بعينه)).

فالآية نزلت بسبب وحكمها عام إلي يوم القيامة بلا ريب.

فليتق الله تعالى من لا يتكلم إلا بالكذب، وقد لا يكتفي به فيؤكد بيمين أو أكثر؟! وقد يختلق الأقوال الكاذبة والأخبار المصطنعة والأنباء الملفقة؟! فكيف يكون من المؤمنين؟.

المطلب الثالث - الإعراب:

﴿إِن﴾: حرف شرط جازم.

﴿جَآءَكُمۡ﴾: فعل ماض مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط.

﴿بِنَبَإٖ﴾: متعلقان بالفعل جاء، والجملة الفعلية ابتدائية أو جملة شرط غير ظرفي لا محل لها.

﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط.

(تبينوا): فعل أمر مبني على حذف النون، والـــواو فاعلـــه، والألـــف للتفريق، والجملة الفعلية في محل جزم جواب الشرط.

﴿أَن﴾: حرف مصدري ونصب. ﴿تُصِيبُواْ﴾: مضارع منصوب بأن وعلامة نصبه حذف النون، والواو فاعله، وأن والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل جر بإضافة مفعول لأجله محذوف، التقدير: (كراهة أو مخافة إصابتكم).

﴿بِجَهَٰلَةٖ﴾: متعلقان بمحذوف حال من واو الجماعة، التقدير: جاهلين.

﴿فَتُصۡبِحُواْ﴾: فعل مضارع ناقص منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد الفاء السببية وعلامة نصبه حذف النون لأنه من الأفعال الخمسة، والواو اسمه، وأن المضمرة والفعل المضارع في تأويل مصدر معطوف على مصدر مأخوذ من الفعل السابق، التقدير:(لئلا تكون منكم إصابةُ قوم بجهالة، فندامةٌ على فعلكم).

﴿عَلَىٰ مَا﴾: متعلقان بـــ﴿نَٰدِمِينَ﴾.

﴿نَٰدِمِينَ﴾: خبر (تصبحوا) منصوب.

المطلب الرابع – الفوائد:

١– في الآية إرشاد إلى التثبت في الأمور، وصحة الأخبار والنقول، حتى لا يختل نظام المجتمع، ولا يتفرق الجمع والشمل بسبب أخبار غير صحيحة، وشائعات غير ثابتة.

٢– إن أمر الله تعالى بالتبين والتثبت في خبر الفاسق يدل على عدم إهمال خبر الفاسق مطلقاً في نفس الوقت الذي لا يعتمد عليه بثقة مطلقة، فلا يقال: خبر فاسق لا يؤبه له، إذ ربما فوَّت ذلك على الأمة مصلحة ما قد تكون حقيقية في نفس الأمر، وقد ضبطت الآية الهدف من التبين وعللته بالحذر من الوقوع في المفاسد ومنها إصابة قوم من المسلمين بجهالة وما يترتب على ذلك من ندم.

٣– بين الله تعالى علة أمره للمؤمنين بالتثبت من الأخبار، وهي الخوف من أن يصاب قوم بريئون بأذى مما بلغهم عنهم ثم يندموا بعد ذلك على فعلهم، حين لا ينفع الندم وقد وقع الظلم بالبرآء، ووقع البشر بالفساد، والعداوات والشحناء، والتفرقة والبغضاء، نتيجة أخبار لا حقيقة لها في الواقع، وإنما هي كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء، وما أكثر الوشاة والحاسدين والمفرقين بين الأحبة، والمفسدين بين الناس.

وقد حذر النبي ﷺ من النميمة ومن إفساد ذات البين، وإلقاء العداوة والتفرقة بين المؤمنين بنقل الكلام القبيح المؤدي إلى الفساد بينهم، يقول رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بخياركم؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: الذين إذا رؤوا ذكر الله، ثم قال: ألا أخبركم بشراركم؟ المشاؤون بالنميمة المفسدون بين الأحبة، الباغون بالبرآء العنت»[1].

٤- قد يوصف بالفسق الكافر، وقد يوصف به تارك المأمورات، فمن وصف الكافر بالفسق قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة:٢٦-٢٧].

ومما وصف به تارك المأمورات أو فاعل المنهيات، ما جاء في هذه الآية الكريمة بالحجرات، فإنه سبحانه وصف الوليد بكونه فاسقاً لأنه كذب في قوله، وكاد يترتب على كذبه شر وفساد، كما ورد في سبب نزول الآية.

٥- جيء بكلمة ﴿فَتُصْبِحُوا۟﴾ ولم يقل سبحانه: (فتصيروا) لأن ذلك أبلغ، باعتبار أن أشنع الندم وأقبحه هو ما استقبل الإنسان صباحاً وقت انتباهه وفراغه، وإقباله على مهامه، ومن ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [الصافات: ١٧٧] وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [الحجر: ٨٣-٨٤].

---

(١) البخاري في الأدب المفرد، باب النمام، (١/١٣٦) رقم (١٣٥).

كما أن النبأ المبشر بالخير في الصباح هو أقوى في السرور وفي الفرح عند السامع، قال جل وعلا: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءً فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

٦- قال بعض العلماء: في الآية دليل على قبول خبر الواحد إذا كان عدلاً[(١)]، لأنه إنما أمر فيها بالتثبت عند نقل خبر الفاسق، ومن ثبت فسقه بطل قوله في الأخبار إجماعاً، لأن الخبر أمانة والفسق قرينة يبطلها.

٧- اختلف العلماء في سماع شهادة من لا تعرف عدالته الباطنة:

فقال أبو حنيفة: يسأل الحاكم عن باطن عدالتهم في الحدود والقصاص قولا واحداً، وفي ما عدا ذلك لا يسأل عنه إلا أن يطعن الخصم فيهم، ويسمع شهادتهم ويكتفي بعدالتهم في ظاهر أحوالهم.

وقال أحمد في إحدى روايتيه ومالك والشافعي:

لا يكتفي الحاكم بظاهر العدالة حتى تعرف عدالتهم الباطنة سواء طعن الخصم فيهم أو لم يطعن.

وعن أحمد رواية أخرى: أن الحاكم يكتفي بظاهر الإسلام ولا يسأل عنهم على الإطلاق.

واختلفوا في الجرح المطلق هل يقبله؟

فقال أبو حنيفة ورواية عن احمد: يقبل.

وقال الشافعي وأحمد: لا يقبل حتى يعين سببه.

❁ ❁ ❁

(١) العدالة: أي الاستقامة على أمور الدين والأخلاق والمروءات.

المبحث السادس

الإيمان نعمة من الله تعالى

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٨﴾

المطلب الأول – الشرح:

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾: فلا تكذبوا، فإن الله يعلمه أنباءكم، ويكشف أسراركم فتفتضحون، لذا يجب عليكم أن تعظموه وتوقروه وتنقادوا لأمره، فإنه أعلم بمصالحكم وأشفق عليكم منكم، ورأيه فيكم أتمّ من رأيكم لأنفسكم.

﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾: معنى طاعة الرسول ﷺ لهم: لو كان الرسول ﷺ يطيعهم في كل ما يرونه ويقترحونه لوقعوا في مشاكل تُعرّضهم لمشاق لا تطاق، بل وفي آثام عظام.

العنت: الإثم، والعنت أيضاً: الفجور والزنى، كما في قوله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النساء: ٢٥].

والعنت في الأصل: انكسار العظم بعد الجبر، فاستعير لكل مشقة وضرر.

والعنت أيضاً: الوقوع في أمر شاق.

ومعنى الآية: لو يسارع إلى ما أردتم قبل وضوح الأمر لنالكم مشقة وإثم، فإنه لو قتل القوم الذين سعى بهم الوليد بن عقبة إليه لكان خطأ، وهذا

يدل على أن بعض المؤمنين زينوا لرسول الله ﷺ الإيقاع ببني المصطلق، وتصديق قول الوليد رضي الله عنه، وأن بعضهم كانوا يتصونون، ويزعجهم جدّهم في التقوى عن التجرؤ على ذلك. والتعبير بالمضارع دليل على أنه كان في إرادتهم استمرار عمله على ما يستصوبونه، بدليل قوله: ﴿فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾.

﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾: هذا خطاب للمؤمنين الصادقين المخلصين، الذين لا يكذبون النبي ﷺ، ولا يخبرونه بالباطل.

﴿وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: حسّنه إليهم بتوفيقه حتى اختاروه، ولأجل ثباتهم عليه وتمكين حبه في قلوبهم زينه لهم، وذلك بأن حسّنه في قلوبهم حتى شاهدت قلوبهم زينة الإيمان الحسنة فعشقته فلم تنفك عنه و لم ينفك عنها.

فالله سبحانه هو المتفرد بخلق ذوات الخلق، وخلق أفعالهم وصفاتهم، واختلاف ألسنتهم وألوانهم لا شريك له في ملكه، ولا مناوئ له في سلطانه، فمنه الهداية للإيمان والتوفيق للطاعة.

﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: الفسوق يريد به الكذب خاصة. والفسوق كل ما خرج عن الطاعة، مشتق من فسقت الرطبة: خرجت من قشرها.

﴿وَالْعِصْيَانَ﴾: جميع المعاصي على جميع أنواعها، وتفاوت مراتبها ودرجاتها.

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾: إشارة إلى المؤمنين المحبب إليهم الإيمان، المزيّن في قلوبهم، أي: أولئك هم المهتدون إلى محاسن الأعمال ومكارم الأخلاق.

والرشد: الاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه. من الرشادة وهي الصخرة.

﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٨﴾: أي فعل الله ذلك بكم فضلاً منه ونعمة عليكم.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي: عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية.

﴿حَكِيمٞ﴾: في أقواله وأفعاله وشرعه وأحكامه.

المطلب الثاني – الإعراب:

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾: الواو: حرف عطف. (اعلموا): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله.

﴿أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾: أن واسمها وخبرها في تأويل مصدر في محل نصب سدّ مسد مفعولي (اعلموا)، والجملة الفعلية هذه معطوفة على جملة: (تبينوا..).

﴿فِي كَثِيرٖ﴾: متعلقان بالفعل ﴿يُطِيعُكُمۡ﴾.

﴿مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ﴾: متعلقان بـــ﴿كَثِيرٖ﴾ أو بمحذوف صفة له.

﴿يُطِيعُكُمۡ﴾ الجملة الفعلية ابتدائية أو جملة شرط غير ظرفي لا محل لها.

﴿لَعَنِتُّمۡ﴾: اللام واقعة في جواب ﴿لَوۡ﴾.

(عنتم): فعل وفاعل، والجملة الفعلية جواب ﴿لَوۡ﴾ لا محل لها.

﴿لَوۡ﴾ ومدخولها في محل نصب حال من الضمير المجرور في: ﴿فِيكُمۡ﴾.

﴿وَلَٰكِنَّ﴾: الواو حرف عطف. (لكنّ): حرف مشبه بالفعل للاستدراك.

﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها.

﴿حَبَّبَ﴾: الجملة الفعلية في محل رفع خبر (لكنّ).

والجملة الاسمية (لكن..) معطوفة على ما قبلها.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، والكاف حرف خطاب لا محل له.

﴿هُمُ﴾: ضمير فصل لا محل له من الإعراب.

﴿ٱلرَّٰشِدُونَ﴾: خبر ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ الجملة الاسمية مستأنفة معترضة لا محل لها.

﴿فَضۡلٗا﴾: مفعول لأجله، متعلق بفعل ﴿حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾.

﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: متعلقان بـــ﴿فَضۡلٗا﴾، أو بمحذوف صفة له.

﴿وَنِعۡمَةٗۚ﴾: معطوف على: ﴿فَضۡلٗا﴾.

﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو حرف استئناف. (الله): مبتدأ.

﴿عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾: خبران له، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها.

المطلب الثالث – الفوائد:

١– جيء بصيغة المضارع لما في ذلك من التنبيه لجميع الأمة عامة، الذين أدركوه في الحياة الدنيا والذين يأتون من بعده، فما قاله ﷺ وحكم به فهو الخير والأفضل، والأحسن ولا أحسن منه، وما رآه حسناً فهو فوق الآراء كلها.

إذا نحن أدلجنا وأنـــت إمامنـــا   كفى لمطايانا بذكرك حاديـــا
وإن نحن أضللنا الطريق لغفـــوة   كفى لهدانا نور وجهك هاديا

٢– دل السياق على أنهم كانوا في خبر الوليد صنفين: صنف صدّقه وأراد غزو القوم المانعين للزكاة وأشار به، وصنف توقف و لم يتعجل حتى يتبين

صحة النبأ، وإن كلاً من الصنفين سلموا الأمر إلى رسول الله ﷺ بعد الاختلاف بينهم، وردوا الأمر فتحاكموا إلى رسول الله ﷺ.

٣- الإيمان في أصل اللغة: هو التصديق الجازم، وفي عرف الشرع:

هو تصديق النبي ﷺ فيما علم مجيئه به ضرورة من عند الله تعالى، ويدخل في هذا الإيمان بالله تعالى، وبوجوب وجوده وبوحدانيته سبحانه، واتصافه بصفات كماله، وتنـــزهه عن كل نقصان، والإيمان بالملائكة، والإيمان بالنبي ﷺ، وبكتب الله تعالى، واليوم الآخر وبالقدر... وما وراء ذلك.

٤- انتقل من الخطاب إلى الخبر فقال: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ يعني هم الذين وفقهم الله فحبب إليهم الإيمان وكره إليهم الكفر، أي قبحه عندهم.

٥- من وجوه البلاغة في الآية، الطباق بين حبب وكرّه.

٦- من الواضح أنه لا يراد بالفسق والعصيان في هذه الآية فسق الكفر، ولا معصية الكفر، لأنهما معطوفان على الكفر، والعطف يقتضي المغايرة.

٧- في قوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ﴾ [الحجرات: ٧].

دليل على أن الإيمان لا يعتبر عند الله تعالى إلا إذا كان قائماً على أساس الحب لله تعالى ولرسوله ﷺ، وحب كل ما جاء عن الله تعالى وعن رسول الله ﷺ، ويكره قلبه الكفر كما يكره أن يلقى جسمه في النار، وكذلك يكره الفسوق والعصيان لأنهما قد يوصلانه إلى الكفر.

٨- في قوله تعالى في آخر الآية: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ دفع اعتراض وشبهة قد تعرض للإنسان بأن يقول: ما دام أمر الإيمان وحبه، والرشد وحصوله، كل ذلك من فضل الله تعالى ونعمته فلمَ لا يتفضل سبحانه على جميع العباد ؟؟!

فأجاب سبحانه بأنه ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: هو عليم بمواضع فضله ومواقع نعمته الخاصة وهي الإيمان، فيضع ذلك في موضعه، فحجة الله تعالى قائمة على العباد كما تقدم في قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

وهكذا سبحانه هو أعلم حيث يجعل الإيمان ونعمته ومحبته في القلب، كما أن الله تعالى أعلم حيث يجعل رسالته.

٩- ذكر الله تعالى هذه الأشياء الثلاثة في مقابلة الإيمان الكامل المزيّن في القلب المحبب إليه. والإيمان الكامل ما اجتمع فيه ثلاثة أمور:

تصديق بالجنان، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان، فقوله تعالى:

﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ و﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ هو التصديق بالجنان.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْفُسُوقَ﴾ أي الكذب وهو الإقرار باللسان.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْعِصْيَانَۚ﴾ هو العمل بالأركان.

فكره للمؤمنين الصادقين العصيان، وحبب إليهم العمل الصالح بالأركان، وهذا من فضله وكرمه وجوده وإنعامه، كما قال تعالى:

﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةًۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ⁽٨⁾﴾.

❁ ❁ ❁

المبحث السابع

الإصلاح بين المؤمنين

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾

في هذه الآية الكريمة، يرشد الله تعالى عباده لما فيه صلاح أمور دينهم، وإصلاح مجتمعهم، ليتباعدوا عن كل ما فيه تفرقة لجمعهم، وعن كل ما يؤدي إلى انقسامهم وبغضهم.

فبعد ما أمر سبحانه بالتثبت في نقل الأخبار التي قد توقع في المخاوف والأخطار، فإن منها أخباراً صحيحة، ومنها أخباراً فاسدة، ومنها الصدق، ومنها الكذب، ومنها أخباراً باطلة ذميمة يشبه أن تكون من باب النميمة، فتورث في النفوس البغضاء والحقد، وإذا استحكم ذلك قد يجر إلى القتال فيقعون في بلاء شديد، يفسد أمر العباد والبلاد.

المطلب الأول – الشرح:

الطائفة تتناول الواحد والمثنى والجمع، فهو مما حمل على المعنى دون اللفظ، لأن الطائفة في معنى الجماعة من الناس لا واحد لها من لفظها، مثل: نفر ومعشر.

﴿ٱقْتَتَلُوا۟﴾: جمع الضمير في ﴿ٱقْتَتَلُوا۟﴾ نظراً إلى المعنى لأن كل طائفة جماعة.

﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ﴾: ثني الضمير في ﴿بَيْنَهُمَا﴾ نظراً إلى اللفظ.

﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ أي: تعدت إحداهما على الأخرى، إذ لم تتأثر بالنصيحة، وأبت الإجابة إلى حكم الله تعالى. والبغي: التطاول والفساد.

﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: ترجع إلى أمر الله تعالى، أي: إلى كتابه الذي جعله حكماً.

﴿فَإِن فَآءَتۡ﴾ أي: رجعت إلى الحق.

﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ﴾ احملوهما على الإنصاف والرضى بحكمه تعالى.

﴿وَأَقۡسِطُوٓاْۖ﴾ أي: اعدلوا. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ أي: العادلين.

المطلب الثاني – سبب النزول:

روى المعتمر بن سليمان عن أنس رضي الله عنه قال: قلت يا نبي الله لو أتيت عبد الله بن أبي، فانطلق إليه النبي صلى الله عليه وسلم فركب حماراً، وانطلق المسلمون يمشون معه، وهي أرض سبخة، فلما أتاه النبي صلى الله عليه وسلم قال: إليك عني، فوالله لقد آذاني نتن حمارك، فقال رجل من الأنصار (عبد الله بن رواحة رضي الله عنه): والله لحمار رسول الله صلى الله عليه وسلم أطيب ريحاً منك، فغضب لعبد الله رجل من قومه، وغضب لكل واحد منهما أصحابه، فكان بينهم حرب بالجريد والأيدي والنعال[1]، فأنزلت فيهم هذه الآية.

المطلب الثالث – الإعراب:

﴿وَإِن﴾: الواو حرف استئناف. (إن) حرف شرط جازم.

﴿طَآئِفَتَانِ﴾: فاعل لفعل محذوف يفسره المذكور بعده مرفوع، والتقدير: (وإن اقتتلت طائفتان) وعلامة رفعه الألف نيابة عن الضمة لأنه مثنى، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد.

---

(١) البخاري، باب من انتظر حتى تدفن، (٣/١٣٨) رقم (٢٦٩١).

﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: متعلقان بمحذوف صفة لـــ﴿طَآئِفَتَانِ﴾.

﴿ٱقۡتَتَلُواْ﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله والألف للتفريق، والجملة الفعلية لا محل لها، لأنها مفسرة للفعل المحذوف على المعنى.

والجملة المحذوفة لا محل لها، لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي.

﴿فَأَصۡلِحُواْ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (أصلحوا): فعل أمر مبني على حذف النون، والجملة الفعلية في محل جزم جواب الشرط.

﴿بَيۡنَهُمَاۖ﴾: ظرف مكان متعلق بالفعل قبله، والهاء في محل جر بالإضافة والميم والألف حرفان دالان على التثنية، و(إن) ومدخولها كلام مستأنف لا محل لها.

﴿فَإِنۢ﴾: حرف شرط جازم.

﴿بَغَتۡ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف المحذوفة لالتقائها ساكنة مع تاء التأنيث الساكنة التي هي حرف لا محل له.

﴿إِحۡدَىٰهُمَا﴾: فاعل مرفوع وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر. والجملة الفعلية لا محل لها.

﴿فَقَٰتِلُواْ...﴾: الجملة في محل جزم جواب الشرط.

﴿تَبۡغِي﴾: فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعة ضمة مقدرة على الياء، والفاعل مستتر يعود إلى ﴿ٱلَّتِي﴾، والجملة الفعلية صلة الموصول لا محل.

﴿حَتَّىٰ﴾: حرف غاية وجر تقدر بعدها (أن) مضمرة، وهي بمعنى: إلى أو لام التعليل.

﴿تَفِيٓءَ﴾: مضارع منصوب بأن مضمرة بعد ﴿حَتَّىٰ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾: الجملة الاسمية تعليل للأمر لا محل لها.

المطلب الرابع – الفوائد:

١- إن المجتمع الإسلامي لا يخرج عن طبيعته البشرية التي قد تدفع به أحياناً إلى بعض المواقف التي تحيد بأفراده عن الجادة، فتوقع الضغائن والشحناء مع ما يترتب على ذلك من خصومة وشجار وربما قتال في بعض الأحيان، فيجب على كل من له وجاهة وسلطة مؤثرة أن يعمل على رأب الصدع وتجاوز الخلاف حفاظاً على رابطة الأخوة الإيمانية. ولا شك أن إصلاح ذات البين من أهم مقومات سلامة المجتمع الإسلامي.

٢- جيء بإن الدالة على الندرة أي أنه لا ينبغي أن يقع بين المؤمنين، ولكن إن حصل شيء من ذلك فلتبادر طائفة من المؤمنين إلى الإصلاح بينهم فوراً.

٣- جيء بقوله تعالى: ﴿ٱقۡتَتَلُواْ﴾ بالجمع، ولم يقل سبحانه: وإن طائفتان من المؤمنين (اقتتلتا) بضمير التثنية والتأنيث، تصويراً لقتالهم بأقبح صورة، فإن (اقتتلتا) تدل على أنهما فريقان تقاتلا، ولكن (اقتتلوا) يدل على الجمع، وما أقبح الجمع إذا كان السبب الجامع لهم هو القتال، وكأنهم فريق واحد اجتمعوا ليقتل بعضهم بعضاً.

٤- ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ﴾ بأصلح أسباب الصلح، وأقرب طريق يوصل إليه وذلك بالنصح لكل من الطرفين، والتذكير بأنهم مؤمنون والإيمان إنما جاء بالسلم والأمان، وإذا كانت هناك شبهة أزالوها، وإن كانت هناك وشايات أو أخبار ذميمة أو فيها نميمة أبطلوها، ولو أدى ذلك الإصلاح بينهما إلى الكذب، فإن الكذب في باب الإصلاح بين الطرفين أباحه

الشارع الحكيم دفعاً للفساد عن الطرفين كما جاء في الحديث، عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «لا يصلح الكذب إلا في ثلاث: يحدث الرجل امرأته ليرضيها، والكذب في الحرب، والكذب ليصلح بين الناس»[1].

٥- أقسط رباعي معناه العدل، واسم الفاعل منه مقسط بمعنى العــادل، أو العدل بخلاف (قسط) الثلاثي فمعناه الجور والظلم، يقال: قسط الرجــل إذا جار وأقسط إذا عدل، قــال تعــالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٥].

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وُلُّوا»[2].

وعنه أيضاً: أن النبي ﷺ قال: «إن المقسطين في الدنيا على منابر من لؤلؤ بين يدي الرحمن عز وجل بما أقسطوا في الدنيا»[3].

٦- قوله تعالى: ﴿فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩]. أمر بالقتال. وهو فرض على الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين، ولذلك تخلف قوم من الصحابة رضي الله عنهم عن هذه المقامات، كسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر ومحمد بن مسلمة وغيرهم رضي الله عنهم، وصوب ذلك علي بن أبي طالب رضي الله عنه لهم، واعتذر إليه كل واحد منهم بعذر قبله منه.

---

(١) الترمذي، باب إصلاح ذات البين، (٣٣١/٤)، رقم (١٩٣٩).

(٢) مسلم، باب فضيلة الإمام العادل، (٧/٦) رقم (٤٧٤٨).

(٣) أحمد (١٥٩/٢) رقم (٦٤٨٥).

٧- يروى أن معاوية رضي الله عنه لما أفضى إليه الأمر، عاتب سعداً على ما فعل، وقال له: لم تكن ممن أصلح بين الفئتين حين اقتتلا، ولا ممن قاتل الفئة الباغية؟ فقال له سعد: ندمت على تركي قتال الفئة الباغية. فتبين أنه ليس على الكل درك[1] فيما فعل، وإنما كان تصرفاً بحكم الاجتهاد وإعمالاً بمقتضى الشرع.

٨- لا يجوز أن ينسب إلى أحد من الصحابة رضي الله عنهم خطأ مقطوع به، إذ كانوا كلهم اجتهدوا فيما فعلوه وأرادوا الله عز وجل، وهم كلهم لنا أئمة، وقد أُمرنا بالكف عما شجر بينهم، وألا نذكرهم إلا بأحسن الذكر، لحرمة الصحبة ولنهي النبي ﷺ عن سبهم، وأن الله تعالى قد غفر لهم، وأخبر بالرضا عنهم رضي الله عنهم، فقال ﷺ: «الله الله في أصحابي، لا تتخذوهم غرضا بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله ومن آذى الله يوشك أن يأخذه»[2]. هذا مع ما قد ورد من الأخبار من طرق مختلفة عن النبي ﷺ: «أن طلحة رضي الله عنه شهيد يمشي على وجه الأرض»[3]، فلو كان ما خرج إليه من الحرب عصياناً، أو خطأ في التأويل وتقصيراً في الواجب عليه، لم يكن بالقتل فيه شهيداً، لأن الشهادة لا تكون إلا بقتلٍ في طاعة، فوجب حمل أمرهم على ما بيّناه.

وقد سئل الحسن البصري عن قتالهم فقال:

---

(١) الدرك (بفتح الراء وسكونها): التبعة.

(٢) الترمذي، (٥/٣٥٧)، رقم (٣٩٥٤).

(٣) ابن ماجه، باب فضل طلحة بن عبد الله، (١/٤٦)، رقم (١٢٥).

(قتال شهده أصحاب محمد ﷺ وغبنا، وعلموا وجهلنا، واجتمعوا فاتبعنا، واختلفوا فوقفنا).

قال المحاسبي: فنحن نقول كما قال الحسن، ونعلم أن القوم كانوا أعلم بما دخلوا فيه منا، ونتبع ما اجتمعوا عليه، ونقف عند ما اختلفوا فيه ولا نبتدعُ رأياً منا، ونعلم أنهم اجتهدوا وأرادوا الله ﷻ، إذ كانوا غير متهمين في الدين، ونسأل الله التوفيق.

الفتنة بعد سيدنا عثمان رضي الله عنه

قتل سيدنا عثمان رضي الله عنه والصحابة برآء من دمه، لأنه منع من قتال من ثار عليه وقال: لا أكون أول من خلف رسول الله ﷺ في أمته بالقتل، فصبر على البلاء، واستسلم للمحنة وفدى بنفسه الأمة.

ثم لم يمكن ترك الناس سدى، فعرضت الخلافة على باقي الصحابة الذين ذكرهم عمر رضي الله عنه في الشورى وتدافعوها، وكان علي كرم الله وجهه أحق بها وأهلها، فقبلها حوطة على الأمة أن تسفك دماؤها بالتهارج والباطل، أو يتخرق أمرها إلى ما لا يتحصل. فربما تغير الدين وانقض عمود الإسلام.

فلما بويع له طلب أهل الشام في شرط البيعة التمكن من قتلة عثمان رضي الله عنه وأخذ القود منهم، فقال لهم علي رضي الله عنه: ادخلوا في البيعة واطلبوا الحق تصلوا إليه. فقالوا: لا تستحق بيعة، وقتلة عثمان معك تراهم صباحاً ومساءً.

فكان علي رضي الله عنه في ذلك أشد رأياً وأصوب قيلاً، لأن علياً لو تعاطى القود منهم لتعصبت لهم قبائل وصارت حرباً ثالثة، فانتظر بهم أن يستوثق الأمر وتنعقد البيعة، ويقع الطلب من الأولياء في مجلس الحكم، فيجري القضاء بالحق.

ولا خلاف بين الأمة أنه يجوز للإمام تأخير القصاص إذا أدى ذلك إلى إثارة الفتنة أو تشتيت الكلمة.

وكذلك جرى لطلحة والزبير، فإنهما ما خلعا علياً من ولاية ولا اعترضا عليه في ديانة، وإنما رأيا أن البداءة بقتل أصحاب عثمان أولى.

وقال كثير من أهل العلم: إن الوقعة بالبصرة بينهم كانت على غير عزيمة منهم على الحرب بل فجأة، وعلى سبيل دفع كل واحد من الفريقين عن أنفسهم لظنه أن الفريق الآخر قد غدر به، لأن الأمر كان قد انتظم بينهم، وتم الصلح والتفرق على الرضا، فخاف قتلة عثمان رضي الله عنه من التمكين منهم والإحاطة بهم، فاجتمعوا وتشاوروا واختلفوا، ثم اتفقت آراؤهم على أن يفترقوا فريقين، ويبدؤوا بالحرب سحراً في العسكرين، وتختلف السهام بينهم، ويصيح الفريق الذي في عسكر علي: غدر طلحة والزبير، والفريق الذي في عسكر طلحة والزبير: غدر علي. فتم لهم ذلك على ما دبروه، ونشبت الحرب، فكان كل فريق دافعاً لمكرته عند نفسه، ومانعاً من إيقاعه بالهلاك، وهذا صواب من الفريقين وطاعة لله تعالى، إذ وقع القتال والامتناع منهما على هذه السبيل.



المبحث الثامن

المؤمنون إخوة

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠ ﴾

المطلب الأول – الشرح:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ أي: في الدين والحرمة، لا في النسب، ولهذا قيل: أخوة الدين أثبت من أخوة النسب، فإن أخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين، وأخوة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب، وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تناجشوا وكونوا عباد الله إخواناً)[1].

﴿ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ أي: بين كل مسلمين تخاصما.

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾: خافوه وراقبوه في جميع أموركم وأحوالكم وشؤونكم.

﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾: الترجي في هذه الآية وأمثالها إنما هو بحسب عقول البشر، لأن الله تعالى لا يحصل منه ترج ورجاء لعباده، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾.

لما كان البشر عرضة لأن يَنْزغ الشيطان بينهم فيختلفوا ويتنازعوا، أمر الله تعالى المؤمنين باعتبار أنهم إخوة في الإيمان، أن يسارعوا إلى الإصلاح بين

---

(١) مسلم، باب تحريم التحاسد والتباغض والتدابر، (١٩٨٣/٤)، رقم (٢٥٥٩).

أخويهم، فإن الخلاف والنّزاع بينهم يترتب عليه أنواع من الفساد، وهلاك العباد، وخراب البلاد.

المطلب الثاني – الإعراب:

﴿إِنَّمَا﴾: كافة ومكفوفة.﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: مبتدأ مرفوع وعلامة رفعه الواو.

﴿إِخْوَةٌ﴾: خبره، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها.

﴿فَأَصْلِحُواْ﴾: الفاء رابطة لجواب الشرط المقدر، والتقدير (إن اقتتلوا فأصلحوا).

(أصلحوا): فعل أمر مبني في محل جزم جواب الشرط المقدر.

﴿بَيْنَ﴾: ظرف متعلق بأصلحوا.

﴿أَخَوَيْكُمْ﴾: مضاف إليه مجرور وعلامة جره الياء.

﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾: جملة استئنافية لا محل لها من الإعراب.

(أصلحوا بين) الجملة الفعلية في محل جزم جواب الشرط المقدر.

﴿لَعَلَّكُمْ﴾: حرف مشبه بالفعل والكاف اسمها.

﴿تُرْحَمُونَ﴾: مضارع مبني للمجهول مرفوع، والواو نائب فاعل.

والجملة الفعلية ﴿تُرْحَمُونَ﴾: خبر (لعل).

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ الجملة الاسمية تعليلية لا محل لها.

المطلب الثالث – الفوائد:

١– خص الاثنين بالذكر بقوله ﷻ: ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ دون الجمع، لأن أقل من يقع منهم الشقاق اثنان، فإذا التزمت المصالحة بين الأقل،

كانت بين الأكثر ألزم، لأن الفساد والشر المترتبين على شقاق الجمع أكثر منهما في شقاق الاثنين.

٢- في هذه الآية والتي قبلها دليل على أن البغي لا يزيل اسم الإيمان، لأن الله تعالى سماهم إخوةً مؤمنين مع كونهم باغين.

قال الحارث الأعور: سئل علي بن أبي طالب ﷺ وهو القدوة عن قتال أهل البغي من أهل الجمل وصفين: أمشركون هم؟

قال: لا، من الشرك فرُّوا. فقيل له: أمنافقون؟

قال: لا، لأن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً.

قيل له: فما حالهم؟ قال: إخواننا بغوا علينا.

٣- استدل البخاري وغيره بالآية على أنه لا يخرج عن الإيمان بالمعصية وإن عظمت، لا كما يقوله الخوارج والمعتزلة، ولأنه ثبت أن رسول الله ﷺ خطب يوماً ومعه على المنبر الحسن بن علي رضي الله عنهما فجعل ينظر إليه مرة، وفي الناس أخرى، ويقول: (إن ابني هذا سيد، ولعل الله تعالى يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين)[1]. فكان كما قال ﷺ، وأصلح الله تعالى به بين أهل الشام وأهل العراق بعد الحروب الطويلة والواقعات المهولة.

٤- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ هذا عقد وثيق صادر من رب العالمين، عهد به إلى جميع المؤمنين على اختلاف ألوانهم وأنسابهم،

---

(١) البخاري، باب قول النبي ﷺ للحسن بن علي رضي الله عنهما، (٢/٩٦٢)، رقم (٢٥٥٧).

وأمكنتهم وأزمنتهم، واختلاف ألسنتهم، يعلمهم سبحانه ويعلن لهم أن كل مؤمن هو أخ لكل مؤمن، سواء آخاه أم لم يؤاخه، فإن الله تعالى هو الذي آخى بين جميعهم، وسواء عرفه أم لم يعرفه، وسواء صـــاحبه أم لم يصحبه، وسواء كان هذا من أهل المشرق وذاك من أهل المغرب، أو من الشمال أو الجنوب، وسواء كان عربياً أو غير عربي أو أحمر أو أبيض أو أسود، كل أولئك سواء في هذه الأخوة التي عقدها الله تعـــالى بينـــهم، وحق لهم سبحانه حقوقاً فليرعوها، لأنه تعالى سيسألهم عنها.

٥- لما كان البشر عرضة لأن ينـــزغ الشيطان بينهم فيختلفوا ويتنازعوا، أمر الله تعالى المؤمنين باعتبار أنهم إخوة في الإيمان، أمرهم أن يسارعوا إلى الإصلاح بين أخويهم، فإن الخلاف والنـــزاع بينهم يترتب عليه أنواع من الفساد وهلاك العباد، وخراب البلاد فقال تعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟» قالوا: بلى، فقال ﷺ: «إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة»[١].

٦- في قوله تعالى: ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ أنواع من التأكيد والحض على إصلاح ذات البين:

أ- أُتي بالفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَصْلِحُواْ﴾ للإعلام بأن الأخوة الدينية الإيمانية هي موجبة للإصلاح بين المؤمنين.

---

(١) أبو داود في الأدب، باب إصلاح ذات البين، (٤/٤٣٢)، رقم (٤٩١٩)، والترمذي في صفة القيامة، باب سوء ذات البين هي الحالقة، (٤/٣٣٠)، رقم (٢٥١١).

ب- أتى بالاسم الظاهر موضع الضمير مضافاً للمأمورين فقال سبحانه: ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ﴾ ولم يقل: فأصلحوا بينهم، وذلك لتقوية التأكيد الموجب للإصلاح، والتحضيض على المبادرة للإصلاح بين الإخوة.

ت- تخصيص الاثنين بالذكر لبيان وجوب الإصلاح بين الاثنين وعدم التساهل فيه، وذلك لدفع تضاعف الفتنة وانتشار الخلاف فيما بين الجموع.

٧- القول في (لعل) فيه ثلاث تأويلات:

أ- أن لعل على بابها للترجي والتوقع، والترجي والتوقع إنما هو في حيز البشر، فكأنه قيل لهم: افعلوا ذلك على الرجاء منكم والتوقع أن تعقلوا، وأن تذكروا، وأن تتقوا.

ب- أن العرب استعملت لعل مجردة من الشك بمعنى: لام كي، فالمعنى: لتعقلوا، ولتتذكروا، ولتتقوا.

ت- أن لعل إذا صدرت عن الله تعالى، داخلة على فعل من أفعاله سبحانه فإنها تدل على تحقق الفعل ووقوعه لا محالة، لأن ذلك يكون من باب الوعد الإلهي لعباده، والله تعالى لا يخلف وعده.

حقوق الأخوة العامة

جاء بيانها في الآيات القرآنية، وفي الأحاديث الواردة عن رسول الله ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

١- **بعضهم أولياء بعض**، أي أنهم بينهم الولاء والمحبة والنصرة، فهم أحباب لبعضهم، وأنصار على الحق لبعضهم، ونصحاء لبعضهم، ومتعاونون مع بعضهم، بينهم التراحم والتوادد والتعاطف والتلاطف، يأمرون بالمعروف ولكن عن طريق المعروف والنصيحة، لا على سبيل العنف والفضيحة.

قال رسول الله ﷺ: «ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضواً تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى»[١].

٢- المؤمن **لا يحسد** أخاه المؤمن، وقد حذر النبي ﷺ من ضرر الحسد المذموم الذي يوقع العداوة بين الإخوان، فقال ﷺ: «إياكم والحسد فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يجتمع في جوف عبد مؤمن غبار في سبيل الله وفيح جهنم، ولا يجتمع في جوف عبد الإيمان والحسد»[٣].

وعن الزبير بن العوام رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «دب إليكم داء الأمم قبلكم، الحسد والبغضاء هي الحالقة، لا أقول: تحلق الشعر ولكن تحلق الدين، والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم»[٤].

٣- المؤمن **لا يهجر** أخاه المؤمن، قال رسول الله ﷺ: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، يلتقيان فيصد هذا -أي يعرض- ويصد هذا،

---

(١) البخاري، باب رحمة الناس والبهائم، (٥/٢٢٣٨)، رقم (٥٦٦٥).

(٢) أبو داود، باب في الحسد، (٤/٢٧٦)، رقم (٤٩٠٣).

(٣) ابن حبان في فضل الجهاد، (١٠/٤٦٦)، رقم (٤٦٠٦).

(٤) مسلم في الإيمان: باب بيان أن لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، (١/ ٧٤)، رقم (٥٤).

وخيرهما الذي يبدأ بالسلام»[1].

وعن أبي خراش السلمي ﵁ عن النبي ﷺ قال: «من هجر أخاه سنة فهو كَسَفْك دمه»[2].

قال العلماء: وهذا الهجر المنهي عنه هو التقاطع بسبب أمور دنيوية، فأما الهجر لأجل الدين فيجوز الزيادة على ثلاث: إذا كان هذا الهجر فيه زجر للمهجور وردع له عن فساده وغيه، ويكون هذا الهجر سبباً لرجوعه عن غيه وضلاله، وأما إذا كان الهجر سوف يزيده فساداً أو انطلاقاً في الغي ومخالفة لأوامر الله، ويحمل المهجور على فساد أكبر مما هو عليه فلا يجوز الهجر، بل الواجب المواصلة بوجه من الوجوه بقصد نصحه والتقليل من فساده وغيه.

٤- المؤمن **لا يبغض** أخاه المؤمن ولا يشاحنه، فالبغضاء والشحناء تمنع رفع الأعمال الصالحة، عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «تعرض الأعمال في كل خميس واثنين، فيغفر الله عز وجل في ذلك اليوم لكل امرئ لا يشرك بالله شيئاً إلا من كانت بينه وبين أخيه شحناء فيقال: اتركوا هذين حتى يصطلحا»[3].

٥- المؤمن **لا يظلم** أخاه المؤمن، قال رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يكذبه ولا يحقره»[4].

فهذا الحديث تأكيد لعقد الأخوة بين المسلم والمسلم، فكيف يظلم

---

(١) البخاري في الهجرة، (٥/٢٢٥٦)، رقم (٥٧٢٧).

(٢) أبو داود، باب فيمن يهجر أخاه المسلم، (٤/٢٧٩)، رقم (٤٩١٥).

(٣) مسلم، باب النهي عن الشحناء والتهاجر، (٤/١٩٨٦)، رقم (٢٥٦٥).

(٤) مسلم، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره، (٤/١٩٨٦)، رقم (٢٥٦٤).

المسلم أخاه؟! سواء كانت تلك الظلامة تتعلق بماله أو دمه أو عرضه، وسواء في ذلك ظلم القول أو ظلم العمل، فإن ذلك كله حرام.

عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا»[1].

٦- (**ولا يخذله**) بل ينصره بالحق على الوجه الحق، وقد ورد عن أبي طلحة وجابر رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «ما من امرئ يخذل امرأً مسلماً في موضع تنتهك فيه حرمته، وينتقص فيه من عرضه، إلا خذله الله تعالى في موطن يحب فيه نصرته، وما من امرئ ينصر مسلماً في موضع ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمته، إلا نصره الله في موطن يحب فيه نصرته»[2].

وعن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من أذل عنده مؤمن فلم ينصره وهو يقدر على أن ينصره أذله الله تعالى على رؤوس الخلائق يوم القيامة»[3].

٧- (**ولا يكذبه**) فإن الكذب فيه غش وخيانة ومكر وخديعة.

عن النواس بن سمعان عن النبي ﷺ أنه قال: «كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هو لك مصدق وأنت به كاذب»[4].

وعن عبد الرحمن بن الحارث السلمي رضي الله عنه قال: كنا عند النبي ﷺ فدعا بطَهور فغمس يده فتوضأ فتتبعناه فحسوناه «أي شربنا من وضوئه ﷺ»،

---

(١) مسلم في تحريم الظلم، (١٩٩٤/٤)، رقم (٢٥٧٧).

(٢) سنن أبي داود في النهي عن التجسس، (٢٧١/٤)، رقم (٤٨٨٤).

(٣) أحمد في حديث سهل بن حنيف رضي الله عنه، (٤٨٧/٣)، رقم (١٦٠٢٨).

(٤) أبو داود في المعاريض، (٧١١/٢)، رقم (٤٩٧١).

فلما فرغ قال النبي ﷺ: «وما حملكم على ما صنعتم؟» قلنا: حب الله ورسوله، قال: «فإن أحببتم أن يحبكم الله ورسوله فأدوا إذا ائتمنتم، واصدقوا إذا حدثتم، وأحسنوا جوار من جاوركم»[١].

٨- **(ولا يحقره)** فإن الاحتقار للمسلم ناشئ عن الكبر واستصغار الغير، كما قال ﷺ: «الكبر بطر الحق وغمط الناس»[٢].

ويقول ﷺ: «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم»[٣]. بأي نوع من أنواع الاحتقار والاستهزاء، أو السخرية منه، أو الغيبة، أو النميمة، أو الطعن فيه، أو النظر إليه بعين الصغار، أو الترفع عليه، أو التطاول عليه بالكلام، أو السب والشتم، أو اللعن، أو الكلام البذيء...

٩- **ولا يروعه ولو مازحاً**، عن عامر بن ربيعة رضي الله عنه أن رجلاً أخذ نعل رجل فغيبها وهو يمزح فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «لا تروعوا المسلم فإن روعة المسلم ظلم عظيم»[٤].

وعن ابن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من أخاف مؤمناً كان حقاً على الله أن لا يؤمنه من أفزاع يوم القيامة»[٥].

١٠- والمؤمن **لا يدخل الحزن** على قلب أخيه المؤمن، فقد نهى رسول الله ﷺ عن كل ما يدخل الحزن على المسلم.

---

(١) الطبراني في الأوسط، (٦/٣٢٠)، رقم (٦٥١٧).

(٢) مسلم في تحريم الكبر وبيانه، (١/٩٣)، رقم (١٤٧).

(٣) مسلم في تحريم ظلم المسلم وخذله، (٤/١٩٨٦)، رقم (٣٢).

(٤) الطبراني (٦/٢٥٣)، وهو ضعيف.

(٥) الطبراني في الأوسط، باب من اسمه إبراهيم، (٣/٢٤)، رقم (٢٣٥٠).

عن ابن مسعود ﵁ عن النبي ﷺ قال: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج اثنان دون الثالث، فإن ذلك يحزنه»[1].

١١- المؤمن **يصلح بين إخوانه** إذا تعرضوا لترغ الشيطان، ولا يزيد الأمر سوءاً بالغيبة والنميمة بينهم، عن أبي الدرداء ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والقيام؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال ﷺ: «إصلاح ذات البين، وفساد ذات البين هي الحالقة»[2].

١٢- ومن حقوق الأخوة الإيمانية **النصيحة** فهي واجبة على كل مسلم.

عن جرير بن عبد الله قال: «بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم»[3].

وعن تميم الداري ﵁ أن النبي ﷺ قال: «الدين النصيحة» ثلاثاً. قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»[4].

قال العلامة الخطابي: **النصيحة** هي كلمة يعبر بها عن جملة، وهي إرادة الخير للمنصوح له، وأصل النصح في **اللغة:** الخلوص، يقال: نصحت العسل إذا خلصته من الشمع.

فمعنى **النصيحة لله تعالى:** صحة الاعتقاد في وحدانيته، وإخلاص النية في عبادته. **والنصيحة لكتابه:** الإيمان به والعمل بما فيه.

---

(١) مسلم، تحريم مناجاة الاثنين دون الثالث بغير رضاه، (١٧١٨/٤)، رقم (٢١٨٤).

(٢) ابن حبان، باب ذكر الإخبار عما يجب على المرء من لزوم إصلاح ذات البين، (٤٨٩/١١)، رقم (٥٠٩٢).

(٣) مسلم، بيان أن الدين النصيحة، (٧٥/١)، رقم (٢٠٨).

(٤) البيهقي، باب النصيحة لله ولكتابه ولرسوله، (١٦٣/٨)، رقم (١٦٤٣٣).

والنصيحة لرسوله: التصديق بنبوته ﷺ، وبذل الطاعة له فيما أمر به أو نهى عنه. **والنصيحة لعامة المسلمين:** هي إرشادهم إلى مصالحهم.

وقال العلامة الحافظ ابن الصلاح: (النصيحة، هي كلمة جامعة، تتضمن قيام الناصح للمنصوح له بوجوه الخير).



المبحث التاسع

من الأخلاق الإيمانية (١)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾

المطلب الأول – الشرح:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾.

﴿خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ أي معتقداً وأسلمَ باطناً، وخيراً عند الله ﷻ .

والسخرية: الاستهزاء، سَخِرت منه أسخر سَخَراً (بالتحريك).

وقال الأخفش: سَخِرت منه وسخرت به، وضحكت منه وضحكت به، وهزئت منه وهزئت به، كل ذلك يقال.

والاسم السُّخْرية والسُّخْري والسِّخريّ.

وفلان سُخْرة: يُتَسَخَّر في العمل. يقال: خادم سُخْرة.

ورجل سُخرة أيضاً يُسْخَر منه. وسُخَرة (بفتح الخاء) يسخر من الناس.

السخرية: هي الهزء والاحتقار للغير قولاً أو فعلاً، بحضرة ذلك الغير.

والمعنى: لا يستهزئ غني بفقير، ولا مستور عليه بذنب بمن لم يستر، ولا ذو حسب بلئيم، وأشباه ذلك مما ينتقصه به، ولعله عند الله خير منه، وهو فحوى قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾.

عن حارثة بن وهب ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا أخبركم بأهل الجنة؟! كل ضعيف مستضعف لو يقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار؟! كل عُتُلٍّ جوَّاظٍ مستكبر»[1].

وعن حذيفة ﷺ قال: كنا مع النبي ﷺ في جنازة، فقال: «ألا أخبركم بشر عباد الله؟ الفظ المستكبر. ألا أخبركم بخير عباد الله؟ الضعيف المستضعف ذي الطمرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره»[2].

وقد تكون السخرية بإحدى الطرق التالية:

١- بالنظر إلى المسخور منه بعين النقص.

٢- التنبيه على ما فيه من العيوب والنقائص على وجه يُضحِك منه الحاضرين.

٣- وقد تكون بالمحاكاة بالفعل، أو بالقول، أو الإشارة، أو الإيماء.

٤- الضحك على كلام المسخور منه إذا غلط، أو الضحك على صفته، أو دمامة صورته.

﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾ أي: لا يستهزئ نساء من نساء. وقد أفرد الله تعالى النساء بالذكر لأن السخرية منهن أكثر. وقد وردت في القرآن الكريم أوامر كثيرة بصيغة الجمع الذي يشمل الجنسين كقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [نوح: ١] فشمل الجميع، أما بموضوع السخرية فقد ذكر النوعين الرجال والنساء.

---

(١) البخاري في الكبر، (٢٢٥٥/٥) رقم (٥٧٢٣).

(٢) مسلم، في فضل الضعفاء والخاملين، (٢٠٢٤/٤)، رقم (٢٦٢٢). والأحاديث في ذلك كثيرة ومستفيضة.

﴿بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ﴾ أي: بئس الاسم أن تلقبوا إخوانكم بألقاب الذم. روي عن النبي ﷺ أنه كان يعجبه أن يدعى الرجل بأحب أسمائه إليه[1].

ولهذا كانت التكنية من السنة، والأدب الحسن. قال عمر رضي الله عنه: أشيعوا الكُنى فإنها سنة. ومعنى التكنية أن تقول: يا أبا فلان.

والمعنى:

١- بئس الاسم يُذكر به أحدكم وهو الفسوق الذي أتى به بسبب ارتكابه النهي فهو فاسق بعد الإيمان أي: بعدما آمن واتصف بكونه مؤمناً، وفي هذا ذم شديد للنابز واللامز والساخر، على اجتماع الفسق والإيمان فيه، بمعنى أنه لا ينبغي أن يجتمعا في نفس واحدة؛ لأن الإيمان يأبى الفسق.

٢- بئس أن يسمى الرجل كافراً أو زانياً بعد إسلامه وتوبته، أو يسمى بأسماء الحيوانات ونحو ذلك من النبز بالألقاب السيئة بعد كونه مؤمناً، فإن النبز بذلك فسوق، ويسمى قائله فاسقاً.

﴿وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ﴾ أي: عن هذه الألقاب التي يتأذى بها السامعون.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: لأنفسهم بارتكاب هذه المناهي، ومعصيتهم ومخالفتهم لصريح الكتاب والسنة التي تنهى عن ذلك.

﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ أي: لا يعب بعضكم بعضاً، ولا يطعن بعضكم في بعض، والمراد بالأنفس: الإخوان هنا، **واللمز**: العيب وهو ذكر معايب الغير والطعن فيه، قال تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التوبة: ٥٨].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ﴾ [التوبة: ٧٩].

---

(١) البخاري في الأدب المفرد، باب يدعى الرجل بأحب أسمائه إليه، (٢٨٥/١)، رقم (٨١٩).

قال الطبري: اللمز باليد والعين واللسان والإشارة، والهمز لا يكون إلا باللسان.

واللمز والهمز متقاربان في المعنى، فإذا اجتمعا خص كل منهما بمعنى، كما قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]، وإذا أفرد أحدهما شمل الآخر كما في قوله تعالى: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١١].

والمعنى: لا تعيبوا إخوانكم من المسلمين لأنهم كأنفسكم، فإذا عاب عائب أحداً بعيب فكأنه عاب نفسه، فهو كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ﴾ [النساء: ٢٩] أي لا يقتل بعضكم بعضاً، لأن المؤمنين كنفس واحدة فكأنه بقتل أخيه قاتل نفسه. وكقوله تعالى: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١].

قال ﷺ: «المؤمنون كرجل واحد، إذا اشتكى رأسه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»(١).

وقال ﷺ: «يبصر أحدكم القذاة في عين أخيه، ويدع الجذع في عينه»(٢).

وقيل: من سعادة المرء أن يشتغل بعيوب نفسه عن عيوب غيره.

﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ﴾:

النَّبَزُ (بالتحريك) اللقب، وهو مختص بلقب السوء عرفاً، والجمع الأنباز.

والنَّبْزُ (بالتسكين) المصدر، تقول: نَبَزَه يَنْبِزُه نَبْزاً، (بالضم وبالكسر) أي لقَّبه.

ويقال: النَّبَزُ والنَّزَبُ لقَبُ السوء.

---

(١) مسلم في تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم (١٩٩٩/٤)، رقم (٢٥٨٦).

(٢) البخاري في الأدب المفرد، باب البغي، (٣١٤/٣)، رقم (٩١٨).

وتنابزوا بالألقاب: أي لقَّب بعضُهم بعضاً بألقاب السوء.

والألقاب: جمع لقب، وهو في الأصل ما أشعر بمدح أو ذم، ولكن المراد به هنا لقب السوء الذي يتأذى به المخاطب ويكرهه.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: التنابز بالألقاب أن يكون الرجل عمل السيئات ثم تاب عنها، فنهي أن يعير بما سلف من عمله، يدل عليه ما روي أن النبي ﷺ قال: «من عير مؤمناً بذنب تاب منه كان حقاً على الله أن يبتليه به ويفضحه فيه في الدنيا والآخرة»[1].

وقيل: هو قول الرجل للرجل: يا فاسق، يا منافق، يا كافر.

وقيل: هو أن تقول لأخيك: يا كذا (بأسماء الحيوانات).

والذي يضبط هذا كله: أن كل ما يكره الإنسان إذا نودي به فلا يجوز لأجل الأذية.

المطلب الثاني – سبب النزول:

١– عن أنس رضي الله عنه أنه بلغ صفية رضي الله عنها أن حفصة بنت عمر رضي الله عنهما قالت عنها: بنت يهودي، فبكت، فدخل عليها النبي ﷺ وهي تبكي، فقال: «ما يبكيك؟» قالت: قالت لي حفصة: إني بنت يهودي، فقال النبي ﷺ: «وإنك لابنة نبي، وعمك لنبي، وإنك لتحت نبي، ففيم تفتخر عليك؟!».

ثم قال: «اتقي الله يا حفصة»[2].

---

(١) الترمذي، (٤/٦٦١)، رقم (٢٥٠٥) نحوه بلفظ: من عير أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله.

(٢) الترمذي، فضل أزواج النبي ﷺ، (٥/٧٠٩)، رقم (٣٨٩٤).

وفي رواية أخرى: «هلا قلت: إن أبي هارون، وإن عمي موسى، وإن زوجي محمداً»[1] فأنزل الله هذ الآية ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾.

٢- عن أبي جبيرة بن الضحاك الأنصاري رضي الله عنه قال: فينا نزلت هذه الآية في بني سلمة، قدم علينا رسول الله ﷺ وليس من رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة، فجعل رسول الله ﷺ يقول يا فلان، فيقولون: مه يا رسول الله إنه يغضب من هذا الاسم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ...﴾[2].

المطلب الثالث – الإعراب:

﴿لَا﴾: ناهية جازمة. ﴿يَسْخَرْ﴾: مضارع مجزوم بلا الناهية.

والجملة الفعلية ابتدائية لا محل لها، كالجملة الندائية قبلها.

﴿عَسَىٰٓ﴾[3]: فعل ماض تام هنا مبني على فتح مقدر على الألف.

﴿أَن يَكُونُوا۟﴾ في تأويل مصدر في محل رفع فاعل ﴿عَسَىٰٓ﴾.

﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟﴾ الجملة الفعلية تعليل للنهي لا محل لها.

﴿وَلَا﴾ الواو حرف عطف، (لا): ناهية داخلة على فعل مقدر محذوف لدلالة ما قبله عليه.

﴿نِسَآءٌ﴾: معطوف على قوم، وهو في المعنى فاعل للفعل المحذوف.

---

(١) النسائي في الافتخار، (٥/٢٩١)، رقم (٨٩١٩).

(٢) أبو داود في الألقاب، (٢/٧٠٩)، رقم (٤٩٦٢).

(٣) تأتي هذه الأفعال تامة تكتفي بفاعلها إذا تلاها المصدر المؤول من أن والفعل دون أن يفصل بينها وبين المصدر فاصل، ويكون المصدر هو الفاعل. ولو كانت (عسى) في الآية ناقصة لبرز فيها الضمير.نحو: عسوا أن يكونوا، وعسين أن يكن.

﴿مِّن نِّسَآءٍ﴾: متعلقان بالفعل المقدر.

﴿أَن يَكُنَّ﴾: في تأويل مصدر في محل رفع فاعل: ﴿عَسَىٰٓ﴾.

﴿تَلۡمِزُوٓاْ﴾: مضارع مجزوم بلا الناهية، علامة جزمه حذف النون لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله.

﴿بِئۡسَ﴾: فعل ماض جامد دال على إنشاء الذم.

﴿ٱلِٱسۡمُ﴾: فاعله والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها.

﴿بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ﴾ الجملة الفعلية خبر لمبتدأ محذوف يدل عليه ما سبق في الآية وتقدير الجملة: (التنابز بالألقاب بئيس).

﴿ٱلۡفُسُوقُ﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو الفسوق، وجملة (هو الفسوق): تفسيرية لــ﴿ٱلِٱسۡمُ﴾.

﴿بَعۡدَ﴾: ظرف زمان متعلق بمحذوف حال من ﴿ٱلۡفُسُوقُ﴾.

﴿وَمَن﴾: اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ.

﴿لَّمۡ﴾: حرف نفي وقلب وجزم.

﴿يَتُبۡ﴾: مضارع مجزوم بلم وهو فعل الشرط.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. والجملة الاسمية: (أولئك هم الظالمون) في محل جزم جواب الشرط.

وخبر المبتدأ (من) جملتا الشرط وجوابه.

المطلب الرابع – الفوائد:

١- **أهم أسباب احتقار الغير والسخرية به** هو الكبر، والتعاظم في نفس صاحبه، قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر». فقال رجل: يا رسول الله، إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة؟ قال: «إن الله تعالى جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس»[1].

٢- نهى سبحانه المؤمنين والمؤمنات عن السخرية بالغير، سواء كان سبب السخرية يتعلق بالمال أو الجاه، أو بذاذة[2] الثياب، أو دمامة الصورة، أو نقص في المدارك، أو يتعلق بأمور الدين، بأن كان المسخور منه مقصراً في الطاعة والعبادة ونحو ذلك، مما فيه الترفع على الغير والازدراء به.

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: «أمرني النبي ﷺ بسبع: بحب المساكين، وأن أدنو منهم، وأن لا أنظر إلى من هو فوقي -أي في الدنيا- وأن أصل رحمي وإن جفاني، وأن أكثر من: لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنها من كَنْز تحت العرش، وأن أقول الحق وإن كان مراً، ولا أخاف في الله لومة لائم، وأن لا أسأل الناس شيئاً»[3].

٣- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ ...﴾.

يلاحظ في هذا النص القرآني الكريم أن كل نهيٍ فيه قد انفرد بلون تعبيري ذي دلالة خاصة قابلة لأن تكون شاملة للمنهيات الأخرى؛ ففي **السخرية** قال

---

(١) مسلم في تحريم الكبر وبيانه، (١/٦٥)، رقم (١٧٩).

(٢) البذاذة: الرثاثة.

(٣) الطبراني في الكبير، (٢/١٥٦)، رقم (١٦٤٨).

وَجَلَّ: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾، وفي **اللمز**: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾، وفي **التنابز**: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾، وفي **الظن** المنهي عنه: ﴿ٱجْتَنِبُواْ﴾، وفي **التجسس**: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾، وفي **الغيبة**: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾.

ويلاحظ أنه يصح في كلٍ منها استعمال التعبيرات الأخرى لتؤدي فيه دلالتها، ومع ذلك فقد اختير لكل قبيحة من هذه القبائح الست صيغة التعبير التي تدل على أبرز صورة من صورها، وهذا من روائع الإعجاز البياني القرآني من حيث استيعاب كل المعاني بأوجز أسلوب مؤثر(١).

٤- السخرية سلوك اجتماعي شائن يعكر على أفراد المجتمع المسلم صفو علاقتهم ويكدر صفاءِ مبادئهم؛ فلا يسلم الاعتقاد بأفضلية المسلم وتساويه في الحقوق مع أخيه المسلم مع الاستهزاء به والسخرية منه، فكان لا بد من أن يأتي النهي بلون تعبيري مميز: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾، ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾ لأن السخرية تغلب فيها المشاركة، فناسب أن يأتي النهي بهذا اللون.

٥- السخرية حرام، وتعد من الكبائر، ولا بد من عفو المسخور منه.

كما أن السخرية بالغير لنقص في عبادته أو قلة طاعاته أو لكثرة زلاته وخطيئاته لا تجوز قطعاً بل هي حرام مطلقاً، فإن المسخور منه عسى أن يكون خيراً من الساخر، وذلك بأن يكون الساخر معجباً بنفسه ومغتراً بطاعته، في حين أن المسخور منه المذنب مقر ومعترف بذنبه، خائف من عذاب ربه، كلما تذكر ذنبه انكسر قلبه، وندم على فعله، له ساعة يناجي فيها ربه ويسأله التوبة والإنابة. قال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [التوبة: ١٠٢].

---

(١) أخلاق وآداب المجتمع الإسلامي من خلال سورة الحجرات.

٦- السخرية منافية لخلق المسلم لأن فيها استعلاءً بغير الحق، ولذلك نبهت الآية الكريمة على ذلك: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾، أي الخيرية الشرعية، فذلك الذي تسخر منه لأمر دنيوي قد يكون خيراً منك في المعيار الشرعي فيكون استعلاؤك عليه تقديم لأمر الدنيا على أمر الآخرة، وتقديم لهوى النفس على معيار الشرع، هذا بالإضافة إلى ما تحدثه هذه السخرية من غلٍ في النفوس وشرٍ بين الناس.

٧- بيَّن الله تعالى أن من شأن الكفار أن يسخروا ويستخفوا بالمؤمنين، فقال تعالى مخبراً عن الكفار يوم القيامة وهم في النار: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ١٠٦ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ١٠٧ قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ١٠٨ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٠٩ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ١١٠ إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ١١١﴾ [المؤمنون: ١٠٦-١١١].

٨- كلمة ﴿قَوۡمٖ﴾ في القرآن الكريم إنما يراد بها الرجال والنساء جميعاً، وهي تذكر وتؤنث، قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥] وتأنيثه باعتبار المعنى وهو أنهم أمة وطائفة وجماعة، وسموا قوماً لأنهم يقومون مع داعيهم بالشدائد والمتاعب، إما بالمعونة معه على كشفها، وإما بالإيذاء والمضايقة إن عارضوه، وهذا حال أعداء الخير والإصلاح في كل زمان ومكان. وقيل: إنه جمع قائم، ثم استعمل في كل جماعة وإن لم يكونوا قائمين.

٩- ناسب إفراد النساء عن الرجال في النهي لأمرين:

أحدهما: كثرة وقوع ذلك منهن فكان عطفهن على القوم لبيان شدة الاهتمام بنهيهن عن هذا السلوك.

والثاني: أن فيه إشارة إلى أن النساء لا يخـالطن الرجـال في المجـالس الاجتماعية فناسب تذكير وهي كلٍ على حدة.

١٠- مما يترتب على الآية الكريمة ألا يقطع بعيب أحد لما يرى عليه من صور أعمال الطاعة أو المخالفة، فلعل من يحافظ على الأعمال الظاهرة يعلم الله من قلبه وصفاً مذموماً لا تصح معه تلك الأعمال، ولعل من رأينا عليه تفريطاً أو معصية يعلم الله من قلبه وصفاً محموداً يغفر له بسببه. فالأعمال أمارات ظنية لا أدلة قطعية. ويترتب عليها عدم الغلو في تعظيم من رأينا عليه أفعالاً صالحة، وعدم الاحتقار لمسلم رأينا عليه أفعالاً سيئة. بل تحتقر وتذم تلك الحالة السيئة، لا تلك الذات المسيئة.

١١- عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[(١)].

فلابد أن يعتقد كل واحد أن المسخور منه ربما كان عند الله خيراً من الساخر، إذ لا اطلاع للناس إلا على الظواهر، ولا علم لهم بالسرائر، والذي يزن عند الله خلوص الضمائر، فينبغي أن لا يجترئ أحد على الاستهزاء بمن تقتحمه عينه إذا رآه رث الحال، أو ذا عاهة في بدنه، أو غير لبق في محادثته، فلعله أخلص ضميراً وأتقى قلباً ممن هو على ضد صفته فيظلم نفسه بتحقير من وقره الله تعالى.

---

(١) مسلم في تحريم ظلم المسلم وخذله، (١٩٨٧/٤)، رقم (٢٥٦٤).

عن الحسن رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المستهزئين بالناس يُفتح لأحدهم في الآخرة باب من الجنة، يقال له: هلم، فيجيء بكربه وغمّه، فإذا جاء أغلق دونه، ثم يفتح له باب آخر، فيقال له: هلم هلم، فيجيء بكربه وغمه فإذا جاء أغلق دونه، فما يزال كذلك حتى إن أحدهم ليفتح له الباب من أبواب الجنة فيقال له: هلم، فما يأتيه من الإياس»[1].

١٢- حكم سبحانه على كل من وقع فيما نهى الله تعالى عنه عباده المؤمنين في هذه الآية الكريمة أنه فاسق، سواء في ذلك السخرية واللمز والنبز بالألقاب.

١٣- اللقب على نوعين: لقب ذم، ولقب مدح.

فلقب الذم: ما أشعر بضَعَة كالجاحظ، وكان ظاهره الكراهة، فإذا أريد به الصفة لا العيب فذلك يجوز النداء له والتعريف به من غير أن يقصد احتقار الملقب، فهناك علماء أجلاء عرفوا بمثل هذه الألفاظ، كالأخفش، والأعمش... والأعرج والأحدب إلخ، وقد استثنى العلماء في مثل هذه الحالات من غلب عليه الاستعمال ولم يكن له فيه كسب يجد في نفسه منه عليه، فجوزته الأمة واتفق على قوله أهل الملة.

أما لقب المدح: فهو ما أشعر برفعة، وهو جائز طبعا بل مستحب لما ورد من حديث النبي ﷺ: «أنه كان يعجبه أن يدعى الرجل بأحب أسمائه إليه»[2]، وقد لقَّب النبي ﷺ كثيراً من أصحابه رضي الله عنهم، فلقب أبا بكر رضي الله عنه بالصديق، وعمر

---

(١) البيهقي (٥/٣١٠)، رقم (٦٧٥٧).

(٢) البخاري في الأدب المفرد، باب يدعى الرجل بأحب أسمائه إليه، (١/٢٨٥)، رقم (٨١٩).

ﷺ بالفاروق، وعثمان ﷺ بذي النورين، وعلياً ﷺ بأبي تراب، وخالداً ﷺ بسيف الله، بقوله ﷺ: «نعم عبد الله خالد بن الوليد سيف من سيوف الله»[1]. وخزيمة ﷺ بذي الشهادتين. وحمزة ﷺ بأسد الله، وقال النبي ﷺ عن الصحابي الذي سأله عن نسيانه ﷺ في الصلاة: «ما يقول ذو اليدين»[2].

١٤– ينبغي أن يُعلم أن النبز بالكفر والتكفير أمره جد خطير. قال رسول الله ﷺ: «إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر فقد باء بها أحدهما»[3].

١٥– التنابز يقتضي المشاركة بين الاثنين، وعبر بذلك لأن كل واحد سرعان ما يقابل الآخر بلقب ما، فالنبز يفضي في الحال إلى التنابز، بعكس اللمز يكون غالباً من جانب واحد ويستثنى من ذلك: أن يشتهر بلقب لا يسوءه، فيجوز إطلاقه عليه، كالأعمش والأعرج من رواة الحديث.

١٦– أمر النبي ﷺ بتحسين الأسماء، وذلك يدل أيضاً على تحسين الألقاب والكنى. عن أبي الدرداء ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنكم تدعون

---

(١) الترمذي في مناقب خالد بن الوليد، (٥/٦٨٨)، رقم (٣٨٤٦).

(٢) عن أبي هريرة صلى بنا النبي صلى الله عليه وسلم الظهر ركعتين ثم سلم ثم قام إلى خشبة في مقدم المسجد ووضع يده عليها وفي القوم يومئذ أبو بكر وعمر فهابا أن يكلماه وخرج سرعان الناس فقالوا قصرت الصلاة وفي القوم رجل كان النبي ﷺ يدعوه ذا اليدين (لطول في يديه) فقال: يا نبي الله أنسيت أم قصرت؟ فقال: لم أنس ولم تقصر. قالوا: بل نسيت يا رسول الله. قال: صدق ذو اليدين، فقام فصلى ركعتين ثم سلم ثم كبر فسجد مثل سجوده أو أطول ثم رفع رأسه وكبر ثم وضع مثل سجوده أو أطول ثم رفع رأسه وكبر، البخاري، باب من يكبر في سجدتي السهو، (٢/٦٨)، رقم (٦٠٥١).

(٣) متفق عليه، (٥٧٥٣)، (٦٠).

يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم، فحسنوا أسماءكم»[1].

وكان ﷺ يكره الاسم القبيح ويغيره، وكذلك يغير اللقب القبيح.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن ابنة لعمر رضي الله عنه كان يقال لها: عاصية، فسماها رسول الله ﷺ جميلة[2].

❃ ❃ ❃

---

(١) ابن حبان، (١٣/٣٤)، رقم (٥٨١٨).

(٢) مسلم، في استحباب تغيير الاسم القبيح إلى حسن، (٣/١٦٨٦)، رقم (٢١٣٩).

المبحث العاشر

من الأخلاق الإيمانية (٢)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ١٢﴾

المطلب الأول – الشرح:

الاجتناب هو التباعد عن الشيء، والأصل في ذلك أن يكون الإنسان في جانب، وذلك الشيء المتباعد في جانب آخر، وفي هذه الصيغة قوة في النهي وتأكيد للمباعدة عنه.

فقد أمر سبحانه عباده المؤمنين أن يتباعدوا عن كثير من الظن، حتى لا يقعوا في ظنون سيئة فيها تهمة بالسوء لمن يساء به الظن، ومن ليس هو موضع سوء الظن، أي لا تظنوا بأهل الخير سوءاً إن كنتم تعلمون من ظاهر أمرهم الخير.

والظن في الشريعة قسمان: محمود ومذموم، فالمحمود منه ما سلم معه دين الظان والمظنون به عند بلوغه، والمذموم ضده بدليل قوله تعالى:

﴿إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾، وقوله تعالى: ﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا﴾ [النور: ١٢]، وقوله تعالى: ﴿وَظَنَنتُمۡ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ وَكُنتُمۡ قَوۡمَۢا بُورٗا﴾ [الفتح: ١٢].

وينبغي للإنسان أن يُحسن ظنه بالناس، ولايسيء ظنه بهم استجابة لأمر الله تعالى في هذه الآية، وغالباً لا يسيء الظن بالناس إلا من كانت أعماله سيئة.

والذي يميز الظنون التي يجب اجتنابها عما سواها، أن كل من لم تُعرف له علامة صحيحة وسبب ظاهر كان ذلك الظن السيء به حراماً، واجب الاجتناب، وذلك إذا كان المظنون به ممن شوهد منه الستر والصلاح، وأونست منه الأمانة في الظاهر، فظن الفساد والخيانة به حرام، بخلاف من اشتهر من الناس بتعاطي الريب والمجاهرة بالخبائث، وكثرة التردد للفسقة ومواضع الفسق. قال الإمام الغزالي: (وسوء الظن حرام كسوء القول، ولكن لست أعني به إلا عقد القلب وحكم الظانّ على غيره بالسوء، أما الخواطر وحديث النفس فمعفو عنه، لما جاء في حديث النبي ﷺ: «إن الله تجاوز لي عن أمتي ما وسوست به صُدُورُها ما لم تعمل أو تكلَّم»[1].

وقال رسول الله ﷺ: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث»[2].

وبيّن ﷺ أنه أكذب الحديث، والمعنى أنه أكذب الحديث النفسي إن لم يتكلم به، والقولي إن تكلم به، ومتى تمكن سوء الظن وكثر تحديث نفسه به واستمر على ذلك فلا بد أن يأتي عليه يوم يحدث عن ذلك بقوله، في حين أنه كذب بل هو أكذب الحديث.

وكذلك ينبغي له أن يحسن ظنه بالله تعالى بأن الله يرحمه ويعفو عنه، ففي الحديث القدسي يقول الله تعالى: «أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم وإن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»[3]. ولكن ينبغي أن يقرن حسن ظنه

---

(١) البخاري، في الخطأ والنسيان في العتاقة، (٢/٨٩٤)، رقم (٢٣٩١).

(٢) متفق عليه، (٢٧٤٨)، (٢٥٦٣).

(٣) مسلم، في فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله، (٤/٢٠٦٧)، رقم (٦٩٢٨).

بالله بحسن العمل، وإلا فهو ظن خاطئ وزعم فاسد، ففي الحديث الشريف يقول الرسول ﷺ: «ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل»[1].

قال الحسن رضي الله عنه: (إن قوماً ألهتهم الأماني حتى خرجوا من الدنيا وما لهم حسنة، ويقول أحدهم إني أحسن الظن بربي وكذب، لو أحسن الظن لأحسن العمل)[2].

يقول الله تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣].

وقال سعيد بن جبير: (الغرة بالله أن يتمادى الرجل بالمعصية ويتمنى على الله المغفرة).

﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ جسست الأخبار وتجسستها أي: تفحصت عنها، **والتجسس:** التفتيش عن بواطن الأمور، وأكثر ما يقال في الشر، ومنه الجاسوس. **ومعنى الآية:** خذوا ما ظهر ولا تتبعوا عورات المسلمين، أي لا يبحث أحدكم عن عيب أخيه كي يطلع عليه بعد أن ستره الله.

وعن معاوية رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدهم أو كدت تفسدهم»[3] فقال أبو الدرداء رضي الله عنه: كلمة سمعها معاوية من رسول الله ﷺ نفعه الله تعالى بها.

---

(١) ابن النجار (٤٨/٢) وهو ضعيف.

(٢) فيض القدير، المناوي (١٦٤/١)، رقم (٦٤٦٨).

(٣) الطبراني في الكبير، (٢٥١/١٥)، رقم (٨٥٩).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: صعد رسول الله ﷺ على المنبر فنادى بصوت رفيع سمعته العواتق في البيوت، فقال: (يا معشر من أسلم بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه، لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم، فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله)[1].

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ﴾: اغتابه اغتياباً إذا وقع فيه، والاسم الغيبة، وهي ذكر العيب بظهر الغيب. وفي الآية نهي عن الغيبة، وهي أن تذكر الرجل بما فيه، فإن ذكرته بما ليس فيه فهو البهتان. عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (أتدرون ما الغيبة) قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: (ذكرك أخاك بما يكره)، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال ﷺ: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته»[2].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت للنبي ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا، قال بعض الرواة: تعني قصيرة، فقال: «لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته»[3]. قالت: وحكيت له إنساناً فقال: «ما أحب أن حكيت لي إنساناً، وإن لي كذا وكذا»[4].

المطلب الثاني – الإعراب:

﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌۖ﴾: حرف مشبه بالفعل واسمها وخبرها.

---

(١) الترمذي (٤/٣٧٨) رقم (٢٠٣٢) وقال: حسن غريب.

(٢) مسلم، في تحريم الغيبة، (٨/٢١)، رقم (٦٧٥٨).

(٣) أبو داود، في الغيبة، (٢/٦٨٥)، رقم (٤٨٧٥).

(٤) أبو داود، في الغيبة، (٢/٦٨٥)، رقم (٤٨٧٥).

والجملة الاسمية تعليل للأمر لا محل لها.

﴿ٱجۡتَنِبُواْ﴾ الجملة لا محل لها من الإعراب جواب الطلب.

(لا): ناهية. ﴿تَجَسَّسُواْ﴾: مضارع مجزوم بلا الناهية.

والجملة الفعلية معطوفة على جملة: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ ...﴾، لا محل لها مثلها.

﴿أَيُحِبُّ﴾: الهمزة: حرف استفهام وتوبيخ.

﴿أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ﴾ المصدر المؤول في محل نصب مفعول به.

﴿مَيۡتًا﴾: حال من: ﴿لَحۡمَ أَخِيهِ﴾، أو من ﴿أَخِيهِ﴾ نفسه.

﴿فَكَرِهۡتُمُوهُۚ﴾: الفاء: هي الفصيحة، التقدير: إن صح ما ذكر فاكرهوا. (كرهتموه): فعل وفاعل والميم علامة جمع الذكور، وحركت بالضم لتحسين اللفظ. فتولدت واو الإشباع، والهاء مفعول به، والجملة الفعلية لا محل لها مع الشرط المقدر، (إن صح ما ذكر فكرهتموه).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ﴾ الجملة الاسمية تعليل للأمر لا محل لها.

المطلب الثالث – الفوائد:

١- في قوله تعالى: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ [الحجرات:١٢]، دليل على أن الظن الحسن لا يدخل تحت الاجتناب، وذلك بأن يظن بالله تعالى خيراً، وأن يظن بعباد الله ظناً حسناً.

٢- حسن الظن بالله تعالى واجب إيماني، لا يكمل الإيمان إلا به، وذلك بأن تظن بالله تعالى خيراً، فإذا علمت ما أمرك به تظن به القبول، وإذا دعوته تظن به الإجابة، وإذا عبدته تظن به إثابته على العبادة، وإذا استغفرته ظننت به المغفرة، دون أن تستبعد ذلك عنه.

عن أبي هريرة ﵁ قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني»[(١)].

وعن جابر ﵁ أنه سمع النبي ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن بالله الظن»[(٢)].

دخل الصحابي واثلة بن الأسقع ﵁ يريد عيادة يزيد بن الأسود، فأخذ يزيد بكفي واثلة ﵁ فجعلهما على وجهه، [فعل ذلك تبركاً بكفي صحابي من أصحاب رسول الله ﷺ، لأن كفي واثلة مست كفي النبي ﷺ بالمصافحة والتقبيل]، فقال له واثلة ﵁: كيف ظنك بالله تعالى؟ فقال: ظني بالله تعالى والله حسن، فقال واثلة ﵁: فأبشر، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، إن ظن بي خيراً فله، وإن ظن بي شراً فله»[(٣)].

٣- حسن الظن بعباد الله تعالى أيضاً واجب إيماني، وهو من حق المسلم على أخيه المسلم أن يظن به حسناً ما لم يظهر منه أمر ظاهر يدل على السوء والشر.

عن سيدنا عمر بن الخطاب ﵁ قال: «لا تظنن بكلمة خرجت من امرئ مسلم شراً وأنت تجد له في الخير محملاً»[(٤)].

---

(١) البخاري، في قوله تعالى: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ المائدة: ١١٦ (٦/٢٦٩٤)، رقم (٦٩٧٠).

(٢) مسلم، في الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، (٤/٢٢٠٥)، رقم (٢٨٧٧).

(٣) ابن حبان، في حسن الظن بالله تعالى، (١/١٨٤)، رقم (٧١٦).

(٤) البيهقي، فصل في ترك الغضب وفي كظم الغيظ والعفو، (٦/٣٢٣)، رقم (٨٣٤٥).

فإذا كان المظنون به ممن شوهد منه الستر والصلاح، وأونست منه الأمانة في الظاهر، فظن الفساد به والخيانة محرم، بخلاف من اشتهر عند الناس بتعاطي الريب والمجاهرة بالخبائث.

وعن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله حرم من المسلم دمه وعرضه وأن يظن به ظن السوء»[1].

٤- في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ دليل على كون الظن هنا بمعنى التهمة وذلك أنه قد يقع له خاطر التهمة ابتداءً ويريد أن يتجسس خبر ذلك ويبحث عنه ويتبصر ويستمع لتحقيق ما وقع له من تلك التهمة.

٥- ورد عن عبد الرحمن بن عوف[3] رضي الله عنه: «أنه حرس مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه في المدينة، فبينما هم يمشون شب لهم سراج في بيت، فانطلقوا يَؤُمُّونَه، فلما دنوا منه إذا باب مجاف (مغلق) على قوم لهم فيه أصوات مرتفعة ولغط، فقال عمر رضي الله عنه وأخذ بيد عبد الرحمن رضي الله

(١) في الصحيحين عن أبي هريرة مرفوعاً (إياكم والظن فإن الظن الكذب) زاد مسلم (كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكنه ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم) مسلم رقم (٢٥٦٣).
ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه في كتاب الديات عن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ نظر إلى الكعبة فقال (ما أعظمك وأعظم حرمتك، للمسلم أعظم حرمة منك حرم الله دمه وماله وعرضه وأن يظن به ظن السوء) ووردت بعض الروايات أن القائل سيدنا عمر رضي الله عنه. وكذلك رواه البيهقي، (٣/٤٤٤)، رقم (٤٠١٤).

(٣) عبد الرحمن بن عوف: أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين توفي النبي ﷺ وهو راض عنهم، هاجر الهجرتين وشهد المشاهد كلها مع النبي ﷺ، ت (٣١)هـ، الإصابة: (٢/٤٠٨).

عنه: أتدري بيت من هذا؟ قلت: لا، فقال: هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف، وهم الآن شرب فما ترى؟ قال عبد الرحمن: أرى أننا قد أتينا ما نهى الله عنه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ فقد تجسسنا، فانصرف عنهم عمر رضي الله عنه وتركهم»[1].

٦- الظن في الشريعة قسمان: محمود ومذموم، فالمحمود منه ما سلم معه دين الظان والمظنون به عند بلوغه. والمذموم ضده، بدلالة قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾. وقوله تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢].

وقوله عز وجل: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢].

وقال النبي ﷺ: «إن كان أحدكم مادحاً أخاه لا محالة فليقل: أحسب فلاناً والله حسيبه، ولا أزكي على الله أحداً»[2].

وقال ﷺ: «إذا ظننت فلا تحقق، وإذا حسدت فلا تبغ، وإذا تطيرت فامض»[3]. وأكثر العلماء على أن الظن القبيح بمن ظاهره الخير لا يجوز، وأنه لا حرج في الظن القبيح بمن ظاهره القبح.

---

(١) البيهقي، باب ما جاء في النهي عن التجسس، (٨/٣٣٣)، رقم (١٧٤٠٣).

(٢) البيهقي، الباب الرابع والثلاثون، (٤/٢٢٦)، رقم (٤٨٦٩).

(٣) الطبراني في الأوسط، (٣/٢٢٨)، رقم (٣٢٢٧)، قال الهيثمي (٨/٧٨): فيه إسماعيل بن قيس الأنصاري وهو ضعيف، و أبو داود ورستة في الإيمان عن الحسن مرسلا [رستة، بالتاء المربوطة: لقب الحافظ عبد الرحمن بن عمر الأصبهاني، كما في شرح المناوي للحديث ١٧٥١].

ورد عن سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: (من تعرض للتهمة فلا يلومن من أساء به الظن، ومن كتم سره كان الخيار إليه، ومن أفشى سره كان الخيار عليه، وضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك منه ما يغلبك، ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً، وكن في اكتساب الأصدقاء فإنهم جنة عند الرخاء، وعدة عند البلاء، وآخ إخوانك على قدر التقوى، وشاور في أمرك الذين يخافون الله تعالى).

٧- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ قرئ ﴿ولا تحسسوا﴾ بالحاء.

واختلف هل هما بمعنى واحد أو بمعنيين؟

أ - هما بمعنى واحد، التجسس البحث عما يكتم عنك، والتحسس (بالحاء) طلب الأخبار والبحث عنها، والاستماع إلى حديث الغير.

ب- التجسس هو تتبع الظواهر، والتحسس تتبع البواطن.

ج- التجسس هو تفحص أخبار الناس بغيرك، والتحسس أن تتفحص عنها بحاستك وبنفسك.

د- التجسس (بالجيم) هو البحث، ومنه قيل: رجل جاسوس إذا كان يبحث عن الأمور. وبالحاء: هو ما أدركه الإنسان ببعض حواسه.

٨- التجسس أكثر ما يقال في الشر، و التحسس غالباً يكون في الخير، ومنه قوله تعالى حكاية عن قول يعقوب على نبينا وعليه الصلاة والسلام: ﴿يَـٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: ٨٧] أي: فتعرفوا منهما وتطلبوا خبرهما.

٩- نهى الله تعالى عن البحث عن المستور من أمور الناس وتتبع عوراتهم، حتى لا يطلع على ما ستره الله منها. فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله

ﷺ قال: (إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تنافسوا،...)[1].

١٠- عن عمرو بن دينار: كان رجل من أهل المدينة له أخت فاشتكت، فكان يعودها فماتت فدفنها. فكان هو الذي نزل في قبرها، فسقط من كمه كيس فيه دنانير، فاستعان ببعض أهله فنبشوا قبرها فأخذ الكيس، ثم قال: لأكشفن حتى أنظر ما آل حال أختي إليه، فكشف عنها فإذا القبر مشتعل ناراً، فجاء إلى أمه فقال: أخبريني ما كان عمل أختي؟ فقالت: قد ماتت أختك فما سؤالك عن عملها؟ فلم يزل بها حتى قالت له: كان من عملها أنها كانت تؤخر الصلاة عن مواقيتها، وكانت إذا نام الجيران قامت إلى بيوتهم فألقمت أذنها أبوابهم، فتتجسس عليهم وتخرج أسرارهم، فقال: بهذا هلكت.

١١- المراد بالنهي عن التجسس والتحسس، النهي عن البحث عن عورات الناس ومعايبهم، والاستكشاف عما ستروه من الزلات والعثرات، وهذا يعد من الكبائر كما عليه الجمهور.

وعن الإمام الأوزاعي أنه قال: من التجسس المنهي عنه الاستماع إلى حديث قوم وهم له كارهون. وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون صب في أذنيه الآنك يوم القيامة»[2].

١٢- المراد بذكرك أخاك بما يكره ذكره صريحاً، أو كناية أو كتابة، ويدخل في ذلك الرمز والإشارة، فإن علة النهي عن الغيبة هي الإيذاء بتفهيم الغير نقصان المغتاب فبأي وجه كان هذا الإفهام فهو غيبة.

---

(١) متفق عليه (٢٧٤٨)، (٢٥٦٣).

(٢) ابن حبان، باب الاستماع المكروه وسوء الظن، (١٢/٤٩٨)، رقم (٥٦٨٥).

عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم»[1].

١٣- الغيبة من الكبائر، التي تحتاج إلى توبة صادقة بشروطها المعروفة بدليل ما رواه أبو داود عن سعيد بن زيد ﷺ عن النبي ﷺ قال: «إن من أربى الربا الاستطالة في عرض المسلم بغير حق»[2]. والأحاديث المنفرة من الغيبة كثيرة.

١٤- بين رسول الله ﷺ عقوبة صاحب الغيبة في الآخرة بقوله: «من أكل لحم أخيه في الدنيا قرب إليه يوم القيامة، فيقال له: كله ميتاً كما أكلته حياً، فيأكله ويكلح ويضج»[3].

وعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟! قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم»[4].

١٥- روى أبو هريرة ﷺ أن الأسلمي ماعزاً جاء إلى النبي ﷺ فشهد على نفسه بالزنى فرجمه رسول الله ﷺ، فسمع نبي الله ﷺ رجلين من أصحابه يقول أحدهما للآخر: انظر إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلب، فسكت عنهما، ثم سار ساعة حتى مر

---

(١) البيهقي، ما ورد من الأخبار في التشديد على من اقترض من عرض أخيه المسلم، (٥/٢٩٩)، رقم (٤٩٦٧).

(٢) أحمد، مسند سعيد بن زيد، (١/١٩٠)، رقم (١٦٥١).

(٣) الطبراني في الأوسط، (٢/ ١٨٠)، رقم (١٨٢).

(٤) أبو داود، باب في الغيبة، (٤/٤٢٠)، رقم (٤٨٧٨).

بجيفة حمار شائل[1] برجله فقال: «أين فلان وفلان؟» فقالا: نحن ذا يا رسول الله، قال: «انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار» فقالا: يا نبي الله ومن يأكل من هذا؟! قال: «فما نلتما من عرض أخيكما أشد من الأكل منه والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها»[2].

١٦- في قوله تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ يبين الله تعالى قباحة حال الذي يغتاب الناس وسوء فحشه وفيها وجوه كثيرة تدفع العاقل أن يبغض الغيبة ولا يعود إليها أبداً ومنها:

أ - مثل الله تعالى الغيبة بأكل الميتة، لأن الميت لا يعلم بأكل لحمه، كما أن الحي لا يعلم بغيبة من اغتابه، وفيه إشارة إلى أن عرض الإنسان كلحمه ودمه، لأن الإنسان يتألم قلبه إذا ذكر بسوء، كما يتألم جسده إذا قطع لحمه، والعرض أشرف من اللحم، فإذا لم يحسن من العاقل أكل لحم الناس، فترك أعراضهم أولى.

ب- وقوله تعالى: ﴿لَحْمَ أَخِيهِ﴾ آكد في المنع، إذ يزداد أمر الغيبة قبحاً ووحشيةً وكراهية، أن يكون ذلك الإنسان الميت الذي ينهش من لحمه هو أخوه في الإنسانية والآدمية، بل أخوه في الملة الإسلامية والعقيدة الإيمانية، وهذا يجعل الأمر أشد سوء لأن العدو قد يحمله الغضب على أكل لحم عدوه.

---

(١) الشَّول: الإبل إذا شولت فلزقت بُطونها بظهورها. وشالتِ الناقةُ بذنبها: رفعتــه، وكل شيء مرتفع فهو شائل. وشال الميزانُ: ارتفعت إحدى كفَّتيه.

(٢) أبو داود، باب رجم ماعز بن مالك، (٥٥٣/٢)، رقم (٤٤٢٨).

ج- قوله تعالى: ﴿مَيۡتٗا﴾ أبلغ في الزجر والردع.

د- يزيد أمر الغيبة قبحاً وذماً وفحشاً أن يكون ذلك الميت إنساناً لا حيواناً فهذا قبح على قبح.

هـ- ﴿فَكَرِهۡتُمُوهُۚ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: فكرهتم أكل الميتة، فكذلك فاكرهوا الغيبة.

الثاني: فكرهتم أن يغتابكم الناس، فاكرهوا غيبة الناس.

وقيل: لفظه خبر، ومعناه أمر، أي: اكرهوه.

إذاً إن هذا الذي يغتاب غيره قد هوى إلى الحضيض الأسفل في البهيمية والحيوانية الشرسة والوحشية على وجه ما يبلغه الحيوان ولا البهائم.

وعن أبي الدرداء ﵁ عن النبي ﷺ قال: «من ذكر امرءاً بشيء ليس فيه ليعيبه به حبسه الله في نار جهنم حتى يأتي بنفاد ما قال فيه»[1].

١٧- كل من سمع كلاماً مؤذياً في حق غيره فهو شريك القائل في الإثم ما لم ينكر ذلك عليه، ويرد عن أخيه المسلم، وإن عجز فارق المجلس.

عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من ذب عن لحم أخيه -أي دافع- بالغيبة كان حقاً على الله أن يعتقه من النار»[2].

وعن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه ﵁ عن النبي ﷺ قال:

«من حمى مؤمناً من منافق بعث الله ملكاً يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم، ومن رمى مسلماً يريد به شينه حبسه الله تعالى على جسر جهنم حتى

(١) الطبراني في الأوسط، (٣٧٩/٨)، وهو ضعيف.

(٢) أحمد، من حديث أسماء بنت يزيد رضي الله عنها، (٤٦١/٦)، رقم (٢٧٦٥٠).

يخرج مما قال»[1]. قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [القصص: ٥٥].

١٨- قوله تعالى: ﴿**أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ**﴾ [الحجرات: ١٢]. هذا استفهام إنكاري جاء لبيان أن الأمر منكر جداً، وأن أحداً من العقلاء لا يحب أكل لحم أخيه ميتاً، ولا يميل إلى ذلك أدنى ميل، كما أن من اغتاب غيره فإنه كأكل لحمه، لأن اللحم ساتر للعظام، والشاتم الذي يغتاب غيره كأنه يقشر ويكشف ما عليه من ستار أسبله الله تعالى عليه، فهو مثيل لآكل اللحم الذي كسا الله تعالى به العظام.

١٩- الفاء في قوله تعالى: ﴿**فَكَرِهْتُمُوهُ**﴾ فاء وقعت في جواب الشرط المقدر ويقدر معه قد، **والمعنى**: إن تيسر لكم ذلك، أو عرض على أحدكم ذلك **فقد كرهتموه**، فإنه لا يمكنكم أن تنكروا كراهيتكم لذلك، فكيف تقعون في غيبة غيركم وأنتم تعلمون وتقرون بقبح ذلك، ونفرتكم من ذلك، وكراهيتكم الشديدة لذلك؟!!

٢٠- لا خلاف أن الغيبة من الكبائر، وأن من اغتاب أحداً عليه أن يتوب إلى الله عز وجل.

ولكن هل يستحل المغتاب؟ اختلف فيه على عدة أقوال:

الأول: ليس عليه استحلاله، وإنما هي خطيئة بينه وبين ربه، واحتج هؤلاء بأنه لم يأخذ من ماله ولا أصاب من بدنه ما ينقصه، فليس ذلك بمظلمة يستحلها منه، وإنما المظلمة ما يكون منه البدل والعوض في المال والبدن.

---

(١) أحمد، حديث معاذ بن أنس الجهني رضي الله عنه، (٣/٤٤١)، رقم (١٥٧٣٤).

الثاني: هي مظلمة، وكفارتها الاستغفار لصاحبها الذي اغتابه، واحتجوا بحديث عن الإمام أحمد قال: رَوَينا في حديث مرفوع بإسناد ضعيف: «كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته»[1].

الثالث: هي مظلمة وعليه الاستحلال منها، واحتجوا بقول النبي ﷺ: «من كانت لأخيه عنده مظلمة في عرض أو مال فليتحلله منه من قبل أن يأتي يوم ليس هناك دينار ولا درهم، يؤخذ من حسناته فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فزيد على سيئاته»[2]. وفي رواية قال رسول الله ﷺ: «من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون له دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه»[3].

٢١- اختلف العلماء في الاستحلال هل يكفي من الغيبة المجهولة أم لا بد أن يذكر له ما قاله بالتعيين؟

القول الأول: لا بد من معرفتها لأن الإنسان قد يسمح عن غيبة دون غيبة. ويندب لمن سئل عن التحليل أن يحلل أخاه مما قال، وأن يسامحه ويعفو عنه، ولكن لا يلزمه ذلك.

عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ قال: «عفوا تعف نساءكم، وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم، ومن اعتذر إلى أخيه المسلم من شيء بلغه عنه فلم يقبل عذره لم يرد علي الحوض»[4].

---

(١) أحمد، (٢٨٩/١)، رقم (٢٦٢٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٢٣/٩) رقم (٦٣٦٧)، وهو ضعيف وله شواهد.

(٢) الترمذي، باب شأن الحساب والقصاص، (٦١٢/٤)، رقم (٢٤١٩).

(٣) البخاري، باب من كانت له مظلمة عند الرجل، (٨٦٥/٢)، رقم (٢٣١٧).

(٤) الطبراني في الأوسط، (٢٤١/٦)، رقم (٦٢٩٥).

القول الثاني: وقد ذهب بعض العلماء إلى أن التحلل من الغيبة ليس بواجب على من وقع في غيره وقال: هي مظلمة، وكفارتها الاستغفار لمن اغتابه، واحتجوا بالحديث السابق: «كفارة من اغتبته أن تستغفر له»[(١)]. أي أن يطلب له المغفرة من الله تعالى إن تعذرت مراجعته واستحلاله، وإذا ترتب على طلب الاستحلال مفسدة كبرى، بأن يكون الذي اغتيب حاد المزاج، ضيق الخلق، شحيح النفس غير صفوح ولا سموح، فربما يزداد غيظه، ويشتد لومه، وتأخذه الحدة فيضطرب بشدة، فإذا تحقق ذلك منه فليستغفر له لعل الله تعالى يغفر لهما.

٢٢- ليس من هذا الباب غيبة الفاسق المعلن به المجاهر، فإن في الخبر: «من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له». وقال ﷺ: «اذكروا الفاجر بما فيه كي يحذره الناس»[(٢)].

من آثار الغيبة على المغتاب:

١- الذي يغتاب الناس ولم يتب يعذب في قبره:

عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: بينا أنا أماشي رسول الله ﷺ وهو آخذ بيدي ورجل على يساره، فإذا نحن بقبرين أمامنا، فقال رسول الله ﷺ: «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، بلى كان أحدهما لا يستتر من بوله، وكان الآخر يمشي بالنميمة»[(٣)]. وفي رواية: «إن هذا كان يأكل لحوم الناس»[(٤)].

---

(١) البيهقي في الشعب (١٢٣/٩)، رقم (٦٣٦٧). وقال إسناده ضعيف.

(٢) الطبراني (٤١٨/١٩)، رقم (١٠١٠)، وهو ضعيف.

(٣) متفق عليه، (٢١٨)، (١٦٥).

(٤) الطبراني في الأوسط، باب من اسمه إبراهيم، (٤١/٣)، رقم (٢٤٦٣).

٢- الغيبة أشد من الربا:

قال ﷺ «إن من أربى الربا الاستطالة في عرض المسلم بغير حق»[(١)].

٣- الغيبة إذا كثرت وعظمت ولم يتب منها تأتي على الحسنات:

وربما لم تبق فيها شيئاً لصاحبها، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من كانت عنده مظلمة لأخيه في عرضه أو شيء منه فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون درهم ولا دينار، إن كان له حسنات أخذ منها بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئاتهم فطرحت عليه ثم طرح في النار»[(٢)].

٤- استئصال روح الأخوة والمحبة والألفة والتعاون من المجتمع:

ليحل محلها روح الكراهية والبغضاء والفتنة والتناحر، فتتركه مجتمعاً ضعيفاً مفككاً مطمعاً لأعدائه.

بعض أسباب ودوافع الغِيبة والنَّميمة:

(١) الحسد.

(٢) الحقد.

(٣) الغيظ.

(٤) الغضب.

(٥) الإستعلاء على الغير، بتنقيصهم وبذكر عيوبهم.

(٧) مجاملة الجلساء ومجاراتهم وإرضائهم.

---

(١) أبو داود، باب في الغيبة، (٢/٦٨٥) رقم (٤٨٧٦).

(٢) مسلم، باب تحريم الظلم، (٤/١٩٩٧)، رقم (٢٥٨١).

(٨) الصحبة السيئة.

(٩) السخرية والإستهزاء بالغير.

(١٠) كثرة الفراغ.

ما يباح من الغيبة:

يباح من الغيبة عدة أنواع تجمعها ضرورة البيان عن الشخص الذي نغتابه، ومن هذه الوجوه:

الأول: التظلم، فيجوز للمظلوم أن يتظلم إلى السلطان والقاضي وغيرهما ممن له ولاية أو قدرة على إنصافه من ظالمه فيقول: ظلمني فلان بكذا وكذا، والمعنى أنه يشكو ظلم الظالم لمن يستطيع رد ظلمه.

الثاني: الاستعانة على تغيير المنكر، ورد العاصي إلى الصواب، فيقول لمن يرجو قدرته على إزالة المنكر: فلان يعمل كذا وكذا فازجره عن ذلك ونحو هذا، ويكون مقصوده التوصل إلى إزالة المنكر.

الثالث: الاستفتاء، فيقول للمفتي: ظلمني أبي أو أخي أو زوجي أو فلان بكذا فهل له في ذلك؟ وما طريقي في الخلاص منه وتحصيل حقي؟ ولكن الأحوط والأفضل أن يقول: ما تقول في رجل أو شخص أو زوج كان من أمره كذا وكذا؟

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قالت هند امرأة أبي سفيان للنبي ﷺ: إن أبا سفيان رجل شحيح، وليس يعطيني ما يكفيني وولدي إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم، قال ﷺ: «خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف»[١].

---

(١) البخاري، باب القضاء على الغائب، (٧/٨٧)، رقم (٥٣٦٤).

الرابع: تحذير المسلمين من الشر ونصيحتهم، وذلك من وجوه:

١- جرح المجروحين من الرواة والشهود.

٢- المشاورة في مصاهرة إنسان، أو مشاركته، أو إيداعه، أو معاملته أو غير ذلك، أو مجاورته، ويجب على المشاوَر أن لا يخفي حاله، بل يذكر المساوئ التي فيه بنية النصيحة.

٣- إذا رأى متفقهاً يتردد إلى مبتدع ضال أو فاسق يأخذ عنه العلم وخاف أن يتضرر المتفقه بذلك فعليه نصيحته ببيان حاله، بشرط أن يقصد النصيحة، وألا يكون الباعث هو الحسد.

٤- أن يكون له وظيفة لا يقوم بها على وجهها إما بأن لا يكون صالحاً لها، وإما بأن يكون ظالماً متشدداً، أو مغفلاً ونحو ذلك، فيجب ذكر ذلك لمن له الولاية العامة ليزيله ويولي من يصلح.

الخامس: أن يكون إنسان مجاهراً بالفسق والفجور والظلم والتعدي على حرمات الناس وحقوقهم. فيجوز ذكره بما يجاهر به. وهذا معنى قول النبي ﷺ: «أترعون عن ذكر الفاجر أن تذكروه؟ اذكروه يعرفه الناس»[١]. وقوله ﷺ: «اذكروا الفاجر بما فيه كي يحذره الناس»[٢]. وكقوله ﷺ لما استأذن عليه ذلك الرجل الفاجر: «ائذنوا له بئس أخو العشيرة هو»[٣]. وكقوله ﷺ فاطمة بنت قيس رضي الله عنها وقد خطبها معاوية وأبو الجهم:

---

(١) مالك، باب الغيبة والبهتان، (٤٦٢/٣)، رقم (١٢).

(٢) البيهقي، الستر على أصحاب القروف، (١٠٩/٧)، رقم (٩٦٦٦).[أصحاب القروف: الذين يقترفون الذنوب].

(٣) البخاري في الأدب المفرد، باب شر الناس من يتقى شره، (٣٥/٢)، رقم (٥٥٧).

«أما معاوية فصعلوك، وأما أبو الجهم فلا يضع عصاه عن عاتقه»[1].

ولكن يجب أن تكون الحكمة رائد العقل، حتى يعرف كيف يذكر هذا الفاجر ويتوصل إلى درء خطره ومنع أذاه، وإلا كان السكوت أسلم، وانتظار الفرص أفضل وأحكم.

السادس: التعريف، فإذا كان الإنسان معروفاً بلقب كالأعمش والأعرج والأصم والأعمى والأحول وغيرهم جاز تعريفهم بذلك، ويحرم إطلاقه على جهة التنقيص، ولو أمكن تعريفه بغير ذلك كان أولى. ورحم الله من قال:

القدح ليس بغيبة في ستة ... متظلم ومعرف ومحذر

ولمظهر فسقاً ومستفت ومن ... طلب الإعانة في إزالة منكر

❁ ❁ ❁

(١) مسلم، باب المطلقة ثلاثاً لا نفقة لها، (٢/١١١٤)، رقم (١٤٨٠).

المبحث الحادي عشر

الكرم التقوى

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾

المطلب الأول – الشرح:

لما بين سبحانه وتعالى فيما سبق أن المؤمنين إخوة، وأمر بأداء حقوقها، ونهى عما فيه انتهاك لحرمتها، ونهى عن السخرية والنبز واللمز وسوء الظن والتجسس والغيبة، لما في ذلك من انتقاص المؤمن أخيه المؤمن وإيذائه واحتقاره والترفع عليه وادعاء الأفضلية.

ذكر بعد ذلك هذه الآية الكريمة، يبين فيها تأكيد الأخوة الإيمانية التي هي الأصل، وتقويتها بالأخوة الإنسانية، وأنهم كلهم إخوة خلقوا من أب واحد، وأم واحدة، فهم سواسية، ليس لأحد منهم فضل على غيره، ولا أكرمية على غيره، ولا رفعة درجة إلا بتقوى الله عز وجل، فأكرمهم عند الله أتقاهم، ويبين أن التقوى ليست دعوى، وكون الإنسان أتقى من غيره ليست مستندة إلى دعواه، بل مرد ذلك إلى الله تعالى فقال:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ أي هو عليم بمن اتقى، كما قال سبحانه:

﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢].

كما أنه تعالى عليم خبير بمن هو أتقى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾. لقد جعلهم الله تعالى شعوباً وقبائل ليتعارفوا بينهم، فيواصلوا أرحامهم، ويتآلفوا بينهم، ويتبينوا أنسابهم، ويتوارثوا أموالهم بحقها الشرعي.

ولم يجعلهم سبحانه شعوباً وقبائل ليتفاخروا بينهم بالآباء والقبائل، ويترفع بعضهم على بعض، فيحتقر نسب غيره.

عن أبي هريرة ﵁ قال ﷺ: «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم محبة في الأهل، مثراة في المال، منسأة في الأثر»[1].

لقد أنزل الله تعالى هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾ يبين للناس أنه تعالى خلقهم من أصل واحد (آدم وحواء)، ويزجرهم فيها عن التفاخر بالأنساب، والتكاثر بالأموال، والازدراء بالفقراء، فإن المدار على التقوى. أي الجميع من آدم وحواء، إنما الفضل بالتقوى.

﴿وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾: ليعرف بعضكم بعضاً، لا للتفاخر بالآباء والقبائل والأنساب، والشعوب رؤوس القبائل، مثل ربيعة ومضر والأوس والخزرج، واحدها شَعْب بفتح الشين، سموا به لتشعبهم واجتماعهم كشُعَب أغصان الشجرة.

والشَّعب في تعريفه الحديث: مجموعة من الأفراد أو الأقوام يعيشون في إطار واحد من الثقافة والعادات، ضمن مجتمع واحد وعلى أرض واحدة، ومن الأمور المميزة لكل شعب طريقة تعاملهم وشكل العلاقات الاجتماعية التي تتكون في مجتمعات هذا الشعب[2].

والشعب من الأضداد، يقال: شعبته إذا جمعته، وشعبته إذا فرقته[3].

---

(١) سنن الترمذي، كتاب البر والصلة، (٤/٧٨)، رقم (٧٢٨٤).

(٢) الموسوعة الحرة (ويكيبيديا).

(٣) والشُّعوبية: بالضم فرقة تفضل العجم على العرب، وهي نزعة ظهرت في العصر العباسي تنكر تفضيل العرب على غيرهم وتحاول الحط منهم والواحد يسمى شعوبي.

واستحدث اسم الأسرة والعائلة لما يشمل الزوج والزوجة، وأولادهما الذين يعيشون في دار واحدة.

والشِّعب بكسر الشين الطريق في الجبل، أو ما انفرج بين الجبلين، والناحية أيضاً، وجمعه: شعاب.

﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾: في هذه الآية ما يدل على أن التقوى هي المراعى عند الله ﷻ وعند رسوله ﷺ دون الحسب والنسب.فإن التقوى تكمل بها النفوس، وتتفاضل بها الأشخاص، وترتفع بها الدرجات في أعلى الجنات، فمن أراد شرفاً وعزاً وكرامةً فليلتمس ذلك منها، وعن سمرة عن النبي ﷺ قال: «الحسب المال والكرم التقوى»[1].

والتقوى: مراعاة حدود الله تعالى أمراً ونهياً، والاتصاف بما أمرك أن تتصف به، والتنــزه عما نهاك عنه.

وهي العمل بالتنــزيل، والخوف من الجليل، والاستعداد ليوم الرحيل.

قال ميمون بن مهران: لا يكون الرجل من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبته شريكه.

وقال الحسن: ما زالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيراً من الحلال مخافة الحرام.

ويظن كثير من الناس أن تقوى الله تعالى بكثرة الصلاة والصيام وأداء فريضة الحج، ثم هم لا يأتمرون بمعروف، ولا ينتهون عن منكر، يؤذون الناس، ويعتدون على حرماتهم، ثم هم لا يتورعون عن أكل أموال الناس بالباطل، وهذا ظن خاطئ وزعم فاسد.

---

(١) سنن الترمذي في سورة الحجرات، (٥/٣٩١)، رقم (٣٢٧١)، قال: هذا حديث حسن غريب صحيح.

قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: ليس تقوى الله بصيام النهار، ولا بقيام الليل، والتخليط فيما بين ذلك، ولكن تقوى الله ترك ما حرم الله، وأداء ما افترض الله، فمن رزق بعد ذلك خيراً فهو خير إلى خير.

وعن عطية بن عروة السعدي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس»[1].

المطلب الثاني – الإعراب:

﴿خَلَقْنَٰكُم﴾ الجملة في محل رفع خبر: (إن).

﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم﴾ الجملة الاسمية ابتدائية لا محل لها.

﴿لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾: مضارع منصوب بـــ: أن المضمرة بعد لام التعليل وعلامة نصبه حذف النون، والواو فاعله، وأن المضمرة، والمضارع في تأويل مصدر في محل جر باللام، والجار والمجرور متعلقان بالفعل: (جعلناكم).

﴿عِندَ﴾: ظرف مكان متعلق بـــ: (أكرم).

﴿أَتْقَىٰكُمْۚ﴾: خبر إن مرفوع وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر.

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ﴾ الجملة الاسمية تعليلية لا محل لها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ الجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها.

المطلب الثالث – الفوائد:

١– عن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ خطب بمكة فقال: «يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتعاظمها بآبائها، فالناس رجلان: رجل بر تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله. والناس بنو آدم

---

(١) ابن ماجه، باب الورع والتقوى، (٢/١٤٠٩) رقم (٤٢١٥).

وخلق الله آدم من تراب قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾[1]».

٢- خطب رسول الله ﷺ بمنى في وسط أيام التشريق وهو على بعير فقال: «أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا عجمي على عربي ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم، قال: ليبلغ الشاهد الغائب»[2].

٣- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول يوم القيامة إني جعلت نسباً وجعلتم نسباً فجعلت أكرمكم أتقاكم، وأبيتم إلا أن تقولوا: فلان ابن فلان وأنا اليوم أرفع نسبي وأضع أنسابكم أين المتقون؟ أين المتقون؟»[3].

٤- بين الله تعالى في هذه الآية أنه خلق الخلق من الذكر والأنثى، وكذلك في أول سورة «النساء»: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

ولو شاء لخلقه دونهما كخلقه لآدم عليه السلام، أو دون ذكر كخلقه لعيسى عليه السلام، أو دون أنثى كخلقه تعالى حواء، وهذا الجائز في القدرة لم يرد به الوجود.

---

(١) البيهقي، مما يجب حفظ اللسان منه الفخر بالآباء، (٤/٢٨٥)، رقم (٥١٢٦). وقال: غريب. و(عيبة): أي الكبر والفخر.

(٢) البيهقي، باب تحريم القتل من السنة، (٨/١٩)، رقم (٥١٧٣).

(٣) الحاكم، باب تفسير سورة الحجرات، (٢/٢٦٣)، رقم (٣٧٢٥).

٥- جاء التحذير الشديد لمن عظم غنياً لماله لا لتقواه وإيمانه، عن ابن مسعود ﵁ مرفوعاً: «من دخل على غني فتضعضع له ذهب ثلثا دينه»[١].

وإنما يكرم الغني إذا كان على تقوى الله تعالى، قائماً بما أوجبه الله تعالى، مؤدياً حق ماله، مواصلاً به رحمه، مؤدياً زكاته لأهلها المستحقين، مساعداً ومسعفاً للفقراء وذوي الأرحام وذوي الحاجات، كما قال ﷺ: «إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالاً وعلماً، فهو يتقي في ماله ربه، ويصل فيه رحمه، ويعلم أن لله فيه حقاً، فهذا بأفضل المنازل.

وعبد رزقه الله علماً و لم يرزقه مالاً، فهو صادق النية، يقول: لو أن لي مالاً لعملت عمل فلان (أي: عمل خير وبر) فهو بنيته وأجرهما سواء.

وعبد رزقه الله مالاً و لم يرزقه علماً[٢]، فهو يخبط في ماله بغير علم، ولا يتقي فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم أن لله فيه حقاً، فهذا بأخبث المنازل.

وعبد لم يرزقه مالاً ولا علماً، فهو يقول: لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان[٣] فهو بنيته ووزرهما سواء»[٤].

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يقول العبد: مالي مالي وإنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى أو ما لبس فأبلى أو أعطى فاقتنى وما سوى ذلك فهو ذاهبٌ وتاركه للناس»[٥].

---

(١) الخطيب (٣٦٨/٤). (فتضعضع): فخضع وذل.

(٢) علماً بالحلال والحرام، وبما يجب عليه من أمور دينه وعمله.

(٣) أي لعمل مثل ذلك الفاسق الذي يخبط في ماله، ولا يتقي فيه ربه، ولا يصل رحمه، فنوى بنية جازمة أن لو كان عنده مال لعمل ذاك العمل الحرام.

(٤) الترمذي، باب ما جاء أن الدنيا سجن المؤمن، (٥٦٢/٤)، رقم (٢٣٢٥).

(٥) مسلم، كتاب الزهد والرقائق، (٢٢٧٣/٤)، رقم (٢٩٥٩).

وعن أبي ذر ﷺ قال: انتهيت إلى النبي ﷺ وهو جالس في ظل الكعبة، فلما رآني قال: «هم الأخسرون ورب الكعبة» قال: فجئت حتى جلست، فلم أتقارّ أن قمت، فقلت: يا رسول الله فداك أبي وأمي من هم؟ قال: «هم الأكثرون أموالاً، إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا[1]، من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله وقليل ما هم»[2].

التقوى

التقوى لغة: هي توقي الإنسان ما يضره.

والتقوى شرعاً: هي توقي غضب الله تعالى وعقابه وعذابه وعتابه، وهي القيام بأوامره واجتناب نواهيه.

أنواع التقوى:

التقوى نوعان:

١- تقوى القلوب وهي من قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]، وتعظيم شعائر الله تعالى هو من تقوى القلوب وليس هو كل التقوى. وشعائر الله تعالى تشمل جميع معالم دين الله تعالى وأحكام شريعته ومواقيتها ومواضع عباداته، وهي شاملة لجميع مناسك الحج، ومواقع المناسك والبيت الحرام والمسجد النبوي والمسجد الأقصى والمساجد كلها. وتشمل تعظيم المصحف الشريف، وكتب السنة المطهرة، وكتب السيرة النبوية، وكتب العلوم الشرعية والعقائد الدينية

---

(١) إلا من أعطى بسخاء وبذل للمساكين والمحتاجين والفقراء.

(٢) مسلم، باب تغليظ عقوبة من لا يؤدي زكاته، (٢/٦٨٦)، رقم (٩٩٠).

كلها. وتشمل تعظيم حملة الكتاب والسنة وعلوم الدين والشريعة، لأنهم حملة هذا الدين ودعاته. قال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨].

عن أبي موسى الأشعري ﵁: أن رسول الله ﷺ قال: «إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط»(١).

وإن من أعظم تقوى القلوب محبة الله تعالى وتعظيمه ومحبة رسوله ﷺ، ومحبة ما يحبه الله تعالى ورسوله ﷺ، وكراهية ما يكرهه الله تعالى ورسوله ﷺ.

قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار»(٢).

وقال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»(٣).

٢- تقوى القوالب والجوارح: وتسمى التقوى العملية، وهي تقوى المحرمات التي يتعاطاها المرء مما نهى الله عنه، كشرب الخمر والسرقة وما وراء ذلك من المحرمات الكبائر والصغائر. عن أبي هريرة ﵁ أن النبي ﷺ قال:

---

(١) البخاري في الأدب المفرد، باب إجلال الكبير، (١/١٤٨)، رقم (٣٥٧).

(٢) البخاري، باب حلاوة الإيمان، (١/١٢) رقم (١٦).

(٣) متفق عليه، (١٥)، (٤٩).

«اتق المحارم تكن أعبد الناس»[1].

مراتب التقوى:

١- تقوى الكفر والشرك وذلك باجتناب ما يوجب الكفر والابتعاد عن الشرك الأكبر. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال في هذه الآية: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٦]: قال الله تبارك وتعالى: «أنا أهل أن أتقى، فمن اتقاني فلم يجعل معي إلهاً، فأنا أهل أن أغفر له»[2].

٢- تقوى المحرمات، يقول الحسن البصري رضي الله عنه: (المتقون هم الذين اتقوا ما حرم الله تعالى عليهم، وأدوا ما افترض الله عليهم).

٣- اتقاء الشبهات، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»[3].

---

(١) الترمذي، باب الصحة والفراغ نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس، (٥٥١/٤)، رقم (٢٣٠٥).

(٢) ابن ماجه، باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة، (١٤٣٧/٢)، رقم (٤٢٩٩).

(٣) البخاري، باب فضل من استبرأ لدينه، (٢٨/١)، رقم (٥٢).

٤- اتقاء ما لا بأس به من المباحات مخافة الوقوع مما به بأس.

عن عطية السعدي ﵁، قال رسول الله ﷺ: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين» .- وفي رواية -: «لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما لا بأس به، حذراً مما به بأس»[١].

٥ - تقوى الله حق تقاته، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

ولما كانت التقوى هي الأمر المعول عليه، وبها يكون مقادير الناس وكرامتهم عند الله تعالى، فقد جاءت **وصية الله تعالى للأولين والآخرين** بالتقوى، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدٗا﴾ [النساء: ١٣١].

وكان ﷺ يوصي بتقوى الله تعالى في وصاياه العامة والخاصة.

فمن وصاياه العامة ما جاء في حديث العرباض بن سارية ﵁ قالوا: يا رسول الله أوصنا. قال ﷺ: «أوصيكم بتقوى الله عز وجل، والسمع والطاعة»[٢].

ومن وصاياه الخاصة وصيته لأبي ذر ﵁ قال: دخلت على رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله أوصني، قال ﷺ: «أوصيك بتقوى الله تعالى، فإنه رأس الأمر كله»[٣].

---

(١) البخاري في الإيمان، باب دعاؤكم إيمانكم، (١/١١)، رقم (٧).

(٢) المستدرك على الصحيحين،كتاب العلم، (١/١٧٤)، رقم (٣٢٩).

(٣) الطبراني في الكبير، باب جندب بن جنادة أبو ذر الغفاري ﵁، (٢/١٥٧)، رقم ١٦٥١.

فضائل التقوى:

١- التقوى سبب الولاية:

قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس:٦٢-٦٤].

٢- التقوى الكاملة سبب في نيل الرعاية والعناية الإلهية:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

٣- التقوى يفتح الله تعالى بها أبواب بركات السماء والأرض:

قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

٤- تقوى الله تعالى سبب عظيم في فتح الأبواب المغلقة، وفتح أبواب الرزق الحلال النافع في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴿٢﴾ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ [الطلاق: ٢-٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴿٥﴾﴾ [الطلاق: ٤-٥].

٥- التقوى سبب للعواقب الحميدة والتخلص من الشدائد والمحن:

وفي قصة يوسف عليه السلام خير مثال على ذلك، فقد وقع في المضايق المتنوعة، والمكاره المتعددة: فراق الأبوين، وتهديده بالقتل، وإلقاؤه في البئر،

وبيعه فصار مملوكاً، ثم صار رقيقاً يخدم في بيت الملك، ثم محنته مع النساء، ثم إدخاله السجن مع أناس غير صالحين، منهم عبدة أصنام ومنهم شراب خمر... ولكن الله تعالى قال: ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢] فقد خلصه الله تعالى من كل محنة، ورفعه بعد كل مظلمة حتى كان كما قال الله تعالى: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [يوسف: ٥٥–٥٧].

٦– التقوى فيها النجاة في الدنيا والآخرة:

قال تعالى: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزمر: ٦١].

٧– التقوى فيها السلامة من المخاوف والمتالف حين يجوز الناس على الصراط:

قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١–٧٢].

٨– التقوى فيها الأمان يوم الخوف والزحام:

قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٣١].

وقال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الشعراء: ٩٠–٩٣].

٩- التقوى شعار أهل الجنة:

قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾ [مريم: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الزمر: ٧٣].

١٠- التقوى هي سبيل الفوز في الدنيا والآخرة:

قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور: ٥٢].



المبحث الثاني عشر

الإيمان والإسلام

﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾

المطلب الأول – الشرح:

الأعراب هم سكان البادية، وهم بادية العرب، وإن الله تعالى جرت عادته أن يرسل رسله من البلاد المتحضرة، والمدن العامرة، التي تسمى في القرآن بالقرى، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١٠٩].

و﴿ٱلْأَعْرَابُ﴾ جمع أعرابي، وهو من يسكن البادية.

وأعرابي نسبة إلى الأعراب. والعرب أهل الأمصار، والنسبة إليهم عربي، فالأعرابي مفرد الأعراب، والعربي مفرد العرب.

وقد وصف الله تعالى الأعراب بأنهم أشد كفراً ونفاقاً فقال عز وجل: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٧].

﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ أي: لم تصدقوا بقلوبكم، و لم يدخلها الإيمان.

﴿وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ أي: استسلمنا، وانقدنا مخافة القتل والأسر والسبي. وهذه صفة المنافقين لأنهم أسلموا في الظاهر و لم تؤمن قلوبهم.

والإسلام هو الدخول في السلم، وهو الانقياد والطاعة، فمن الإسلام ما هو طاعة على الحقيقة باللسان والأبدان والجنان لقوله عز وجل لإبراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١].

ومنه ما هو انقياد باللسان دون القلب، وذلك قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾ [الحجرات: ١٤].

وهل هناك فرق بين المؤمن والمسلم عند أهل السنة ؟

الإيمان لغة: مطلق التصديق، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧] أي: بمصدّق.

والإيمان في اصطلاح علماء التوحيد: هو التصديق بكل ما جاء به رسول الله ﷺ مما علم من الدين بالضرورة، كالإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقضاء والقدر خيره وشره، وافتراض العبادات، وتحريم قتل النفس عدواناً وظلماً، وتحريم شرب الخمر، والزنى، والربا، وأكل أموال الناس بالباطل... وأمثال ذلك مما أمر الله تعالى به، أو نهى عنه.

والمقصود بالتصديق: الاعتقاد بصدقه ﷺ اعتقاداً جازماً، مع الإذعان القلبي لما جاء به، والقبول له.

أما **الإسلام**، فهو **لغة:** مطلق الامتثال والانقياد. ومنه قوله تعالى: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤].

وهو **شرعاً:** الامتثال والانقياد لما أتى به رسول الله ﷺ من الأفعال الظاهرة الشرعية، وعُلم من الدين بالضرورة، ويتحقق بالنطق بالشهادتين، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً.

وهذا ما دل عليه حديث جبريل عليه السلام حين سأل الرسول ﷺ عن الإسلام والإيمان: «بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله ﷺ، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت، إن استطعت إليه سبيلا، قال: صدقت، قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه، قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره، قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، قال: فأخبرني عن الساعة، قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل».

وقد جمع الله عز وجل الإيمان والإسلام لأهل بيت لوط عليه السلام في سورة الذاريات بقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥-٣٦].

يعني أن الله سبحانه أخرج المؤمنين لينجيهم من العذاب فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين، أي فيها بيت واحد فيه مسلمون، منهم مسلمون مؤمنون وهم الذين نجاهم الله، ومنهم مسلمون ظاهراً غير مؤمنين قلباً، بل منافقون كامرأة لوط، فلم تشملها النجاة.

﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: ظاهراً وباطناً وسراً وعلانية.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: تخلصوا له الإيمان.

﴿لَا يَلِتۡكُم﴾: لا ينقصكم، يقال: لاته، يلته ليتاً، ويلوته: نقصه.

المطلب الثاني – الإعراب:

﴿ءَامَنَّا﴾: الجملة الفعلية في محل نصب مقول القول.

﴿لَّمْ﴾: حرف نفي وقلب وجزم.

﴿تُؤْمِنُواْ﴾: مضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه حذف النون.

والجملة الفعلية (لم تؤمنوا) في محل نصب مقول القول.

(لكن): حرف استدراك مهمل لا عمل له.

﴿قُولُوٓاْ﴾: أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله.

﴿أَسْلَمْنَا﴾ الجملة الفعلية في محل نصب مقول القول.

﴿وَلَمَّا﴾: الواو: واو الحال. (لـــمَّا) حرف نفي وقلب وجزم.

﴿يَدْخُلِ﴾: الجملة الفعلية في محل نصب حال من واو الجماعة.

﴿وَإِن﴾: الواو: حرف استئناف. (إن): حرف شرط جازم.

﴿تُطِيعُواْ﴾: الجملة الفعلية ابتدائية أو جملة شرط غير ظرفي لا محل لأنها.

﴿يَلِتْكُم﴾: مضارع جواب الشرط، والجملة الفعلية جواب الشرط، و لم تقترن بالفاء لا محل لها.

و(إن) ومدخولها كلام مستأنف لا محل له.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الجملة الاسمية تعليلية أو مستأنفة لا محل لها.

المطلب الثالث – الفوائد:

١– قال تعالى: ﴿لَا يَلِتْكُم﴾ بالمفرد و لم يقل: لا يلِتَاكم (بالمثنى)، لأن طاعة الله تعالى طاعة لرسوله ﷺ.

٢- ذهب كثير من العلماء أن هؤلاء الأعراب ليسوا بمنافقين كلياً، ولكن كان إيمانهم ضعيفاً، بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٤]. أي لا ينقصكم من أجور أعمالكم شيئاً، فدل على أن لهم من الإيمان ما تقبل به أعمالهم.

٣- ليس المراد جميع الأعراب بل طائفة خاصة منهم، وذلك لأن الله تعالى أثنى على كثير من الأعراب ومدحهم، وشهد لهم بالإيمان الصادق والإخلاص كما في قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩٩﴾ [التوبة: ٩٩].

٤- الطاعة تقتضي امتثال الأوامر واجتناب النواهي، أي إن تطيعوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، وإن تطيعوا رسول الله ﷺ فيما أمركم به ونهاكم عنه، فإنه رسوله، وطاعته طاعة لله تعالى أيضاً، قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ [النساء: ٨٠].



المبحث الثالث عشر

شروط تَحقُّقِ الإيمانِ

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾

المطلب الأول – الشرح:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ...﴾ أي: المؤمنون الصادقون في إيمانهم هم الذين آمنوا بالله إيماناً صحيحاً، وصدقوا رسوله ﷺ وانقادوا لأوامرهما، وأذعنوا لحكمهما إذعاناً كاملاً مقروناً بالرضا.

﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ أي: لم يشكوا في دينهم وكل ما يأتيهم من ربهم، بل يعتبرونه حقاً وصدقاً. و(ارتاب) من رابه: إذا أوقعه في الشك مع التهمة.

﴿وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي: في طاعته.

والمجاهدة بالأموال والأنفس تشمل العبادات المالية والبدنية بأسرها، فالمجاهدة بالأموال عبارة عن العبادات المالية، كالزكاة، والكفارات على جميع أنواعها، وما ينفقه المؤمن تبرعاً وصدقات.

وقدم الأموال بالذكر لحرص الإنسان عليه، فإن المال شقيق الروح، وقد يبذل الإنسان روحه في سبيل ماله، بل قد يبذل الرجل شرفه وكرامته ومروءته في سبيل تحصيل المال.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾: في إيمانهم، لا من أسلم خوف القتل ورجاء الكسب. فلما نزلت حلف الأعراب أنهم مؤمنون في السر والعلانية

وكذبوا، فنـــزلت ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ ﴾:

﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ ﴾ أي: تخبرون الله بدينكم الذي أنتم عليه، وهو قولكم: ﴿ءَامَنَّا﴾.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ أي: لا تخفى عليه تعالى خافية فيهما.

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾: يعلم كل شيء من النفاق والإخلاص وغير ذلك، فلا يحتاج إلى أخباركم.

المطلب الثاني – الإعراب:

﴿إِنَّمَا﴾: كافة ومكفوفة.

﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾: مبتدأ مرفوع وعلامة رفعه الواو.

﴿ٱلَّذِينَ﴾: ١- اسم موصول مبني على الفتح في محل خبر المبتدأ.

٢- في محل رفع صفة لـ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾:

١- الجملة مستأنفة إذا أعرب الموصول خبر المبتدأ.

٢- الجملة محل رفع خبر المبتدأ إذا أعرب الموصول صفة لـ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾.

﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ﴾: الهمزة: حرف استفهام توبيخي تقريعي.

والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول.

﴿ قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ﴾ الجملة مستأنفة لا محل لها.

﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو واو الحال. (الله): مبتدأ.

﴿يَعۡلَمُ﴾: الجملة في محل رفع خبر.

﴿مَا﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب مفعول به.

المطلب الثالث – الفوائد:

١– في قوله تعالى ﴿ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ﴾ جيء بـ﴿ثُمَّ﴾ التي للتراخي للإشارة إلى أن نفي الريب عنهم ليس وقت حصول الإيمان فيهم وإنشائه فقط، بل هو مستمر بعد ذلك فيما يتطاول من الأزمنة. فكأنه قيل: ثم داموا على ذلك.

٢– ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ أي تحققوا بالتصديق القلبي الجازم القطعي وثبتوا عليه بحيث لا يعتريهم بعد ذلك شك مهما تطاولت عليهم الأزمنة.

فقد تعتريهم الفتن وتلقى عليهم الشبه ومع ذلك فهم مؤمنون إيماناً قاطعاً لا يقبل الشك ولا الارتياب.

٣– وصف الله تعالى المنافقين بالارتياب والاضطراب فقال: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النور: ٤٨–٥٠].

ثم وصف المؤمنين الصادقين فقال: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

وقال تعالى في بيان صفات المؤمنين الصادقين: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ٢-٤].

٤- الجهاد هو بذل الجهد بكل ما ينبغي أن تجهد النفس فيه تصديقاً لدعوى الإيمان، وذلك بقيام المرء بكل ما أمره الله تعالى به من جهاد الكفار، وبقيامه بأنواع العبادات البدنية المحضة، والمالية المحضة، والمشتملة عليهما معاً.

فالبدنية المحضة كالصلاة فإنها تحتاج إلى جهد وصبر عليها في أدائها ولزوم أوقاتها، قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]. وقال ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَاۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًاۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

ومن العبادات البدنية المحضة الصيام، قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُۖ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وأما العبادات المالية المحضة فالزكاة، وهي تحتاج إلى بذل الإنسان جهده أن يؤديها كاملة بلا نقص في كل عام، طيبة بها نفسه، غير متحرج فيها، ولا متضايق ومتثاقل من أدائها، ويبذل جهده أن يضعها في مواضعها المشروعة،

فإنها حق الفقراء، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [التوبة: ٦٠].

وأما العبادات المشتملة على البدنية والمالية فكالحج، والجهاد للأعداء المحاربين.

٥- تقديم الأموال على الأنفس في الآية الكريمة ونحوها من باب الترقي من الأدنى إلى الأعلى، والترقي من بذل المال النفيس إلى ما هو أنفس وهو النفس.

٦- الجهاد بالمال والنفس يحتاج إلى جهاد النفس والهوى والشيطان والدنيا، كما قيل:

إني ابتليت بأربع يرمينني ... بالسهم عن قوس لها توتير

إبليس والدنيا ونفسي والهوى ... يا رب أنت على الخلاص قدير

فمن جاهد هذه الأربعة في الله تعالى هداه الله تعالى سبيل رضاه وقربه، كما قال الإمام الجنيد في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، قال: والذين جاهدوا أهواءهم فينا بالتوبة إلينا، لنهدينهم سبل الخلاص.

❁ ❁ ❁

خاتمة السورة

الإسلام نعمة من الله تعالى

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾

إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

المطلب الأول – الشرح:

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ﴾: هو قولهم: أسلمنا، ولم نحاربك، يمنون بذلك على رسول الله ﷺ، فبين بذلك أن إسلامهم لم يكن خالصاً.

عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه أن أناساً من العرب قالوا[1]: يا رسول الله، أسلمنا ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان. فأنزل الله تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ﴾. والمعنى: أنهم جاؤوا إليك يعدون إسلامهم منة عليك.

﴿ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ﴾ أي: لا تعتدّوا عليّ بإسلامكم.

﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ ﴾ أي: لله المنة عليكم أن أرشدكم وأمدكم بتوفيقه حيث هداكم للإيمان على ما زعمتم وادعيتم.

﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾: أنكم مؤمنون.

والمنة هي النعمة لا يطلب معطيها جزاء ممن أنعم بها عليه، مشتقة من المن وهو القطع، من العطاء الذي لا يراد عليه جزاء.

---

(١) الطبراني في الأوسط، (٧٨/٨)، رقم (٨٠١٦).

فالله تعالى هو وحده له المنة لأنه يعطي العطاء ولا يحتاج إلى جزاء، وإن أعظم المنن والعطايا الإلهية هي نعمة الإيمان، والله تعالى قد امتن على هذه الأمة خاصة بنعمتين كبيرتين عظيمتين: نعمة الإيمان، ونعمة إرسال أفضل الرسل وأكرمهم على الله ﷻ، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

والمن: ذكر الصنيعة، وتعداد النعمة، والمنان من بني آدم: هو الذي يعطي العطاء، ثم يذكّر به من أعطاه، ويعدّد له ما فعله من المعروف، مثل أن يقول له: أعطيتك كذا، وفعلت لك كذا، وصنعت معك كذا، وهو تعيير وتكدير تنكسر منه القلوب، لذا كان مذموماً يمحق الثواب ويبطله، بل ويغضب الله تعالى.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤] والمن لا يليق إلا في جانب الله تعالى لأنه المتفضل بما يملكه حقيقة، وغيره لا ملك له حقيقة، فلا يليق به المنّ، كيف لا وقد سمى نفسه سبحانه: المنان؟!

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: المعنى: إن الله عز وجل لا يخفى عليه شيء في السموات والأرض، فكيف يخفى عليه حالكم؟! بل يعلم سركم وعلانيتكم. ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: بصير بأعمالكم الظاهرة والخفية، وعليم بجوارحكم الظاهرة والباطنة. والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

المطلب الثاني – الإعراب:

﴿أَنْ﴾: حرف مصدري ونصب.

﴿أَسْلَمُواْ﴾: ماض مبني على الضم في محل نصب بأن، والواو فاعله، وأن والفعل في تأويل مصدر في محل نصب بنـــزع الخافض، التقدير: لأن، أو بأن أسلموا، والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما.

﴿لَّا تَمُنُّواْ...﴾: الجملة في محل نصب مقول القول.

﴿قُل لَّا تَمُنُّواْ﴾: الجملة مستأنفة لا محل لها.

﴿بَلِ﴾: حرف عطف وإضراب. ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ.

﴿يَمُنُّ﴾: الجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ.

﴿ٱللَّهُ يَمُنُّ﴾: الجملة الاسمية في محل نصب مقول القول معطوفة على ما قبلها.

﴿أَنْ هَدَىٰكُمْ﴾: المصدر المؤول منصوب بنـــزع الخافض، والتقدير (بأن هداكم).

﴿كُنتُمْ﴾: ماض ناقص مبني على السكون في محل جزم فعل الشرط، والتاء اسمه. ﴿صَٰدِقِينَ﴾: خبر كان منصوب.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ الجملة الاسمية مستأنفة أو مبتدأة لا محل لها.

﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾: (ما):

١– اسم موصول مبني على السكون في محل جر بالباء، والجملة الفعلية بعدها صلتها، والعائد أو الرابط محذوف التقدير: بصير بالذي، أو بشيء تعملونه.

٢– (ما) مصدرية تؤول مع الفعل بعدها بمصدر في محل جر بالباء، والجار والمجرور متعلقان بـــ: ﴿بَصِيرٌۢ﴾، التقدير: بصير بعملكم.

المطلب الثالث – الفوائد:

١– بيان حكم المنّ وأنه مذموم من الإِنسان ومحمود من الرحمن عز وجل وحقيقة المن هي عد النعمة وذكرها للمنعم عليه وتعدادها المرة بعد المرة.

٢– بيان إحاطة علم الله بسائر المخلوقات، وأنه لا يخفى عليه من أعمال العباد شيء.

٣– فضل الله علينا حين هدانا للإيمان وأنعم علينا بالإسلام.

٤– ثمار الدخول في الإسلام ورسوخ الإيمان تعود على معتنقها عاجلاً وآجلاً.

٥– الرد على كل غافل يمتن على الله تعالى بصالح أعماله أو علو درجات إيمانه.

٦– ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ والمغيبات منها مغيبات لم يشهدها البصر، ولم تدركها الحواس، ومنها ما لم ينته إليه علم المخلوقات، فالله تعالى يعلم ذلك كله، وإنما خص غيب السموات والأرض باعتبار أنها محيطة بالإنسان، فالسموات من فوقه، والأرض من تحته، وهو يراها، ولكنه لا يعلم ما فيهما من مغيبات وما أودع الله تعالى فيهما، وما خبأه في غياباتهما من عوالم وأرواح، ومن ملائكة وأمور أوحاها في كل سماء، قال تعالى: ﴿وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ﴾ [فصلت: ١٢] وهو سبحانه يعلم غيب ما في الأرض من معادن وخزائن وكنوز كنزها، وأثقال حملها إياها، وأودعها في جوفها.

قال تعالى: ﴿أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ٢٥ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٢٦﴾ [النمل:٢٥-٢٦].

٧– جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ ليقيم الحجة على

علمه سبحانه بما في قلوبهم، فإن يكن الإيمان الصادق قد انتهى إلى قلوبهم فإن الله يعلمه، لأنه سبحانه يعلم غيب السموات والأرض، فكيف لا يعلم ما غاب في قلب الإنسان؟ فجميع المغيبات هي معلومة ومشهودة له تعالى لا تخفى عليه. وليبين سبحانه أنه يعلم قطعاً صدق إيمان قلوبهم إن كانوا صادقين في ادعائهم ذلك، فإن الإيمان اعتقادي جازم، وهو خفي غيـــبي، ولكن الله تعالى يعلم ما غاب في القلوب، كما قال تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

٨- قال بعضهم: الجهر معروف، والسر ما أخفيته في قلبك، والأخفى ما خفي عنك ولكنه خبؤٌ خبأه الله تعالى في زوايا قلبك، فهو سبحانه يعلم منك ما تعلمه وما لا تعلمه من نفسك، فهو سبحانه أعلم بك منك لأنه أقرب إليك منك. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].



ملاحظات عامة عن أساليب العرض في سورة الحجرات[1]

تعددت وسائل التوجيه التربوي في هذه السورة الكريمة، ولم يكن هذا التعدد مجرد تنويع لغرض التنويع، وإنما كان توافقاً بين الغاية التربوية والطبيعة البشرية. وهذه بعض الأمثلة:

أولاً- الترغيب والترهيب:

ظهرت مجموعة من إشارات الترهيب والترغيب التي تذيل الآيات التي ضمت الآداب والضوابط المتقدمة خلال السورة الكريمة، بحيث تعمل مجتمعةً على تحقيق منظومة متزنة من الدوافع والموانع التي تدفع الفرد المسلم والمجتمع نحو السلوك المرغوب فيه، وتحجزه عن السلوك المرغوب عنه.

فقوله تعالى: ﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢].

فيه تحذير وترهيب من عواقب التقدم على الله ورسوله، وفي مقابل ذلك قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣]. ترغيباً في حال الملتزمين بالأدب بين يدي الرسول ﷺ.

وكذلك وصف تعالى الذين رفعوا أصواهم فقال: ﴿أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤].

وقابله فتح باب التوبة والمغفرة: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحجرات: ٥].

وبهذا يتحقق التوازن بين الترغيب والترهيب توافقاً مع الاستعداد المزدوج في النفس البشرية لتحصيل ما فيه خيرها ودرء ما فيه شرها ومفسدها.

ثانياً- التذكير بنعمة الله تعالى وفضله:

مما يدعو المؤمن للالتزام بالهدي الإلهي والوقوف عند توجيهاته،

---

(١) آداب وضوابط المجتمع الإسلامي من خلال سورة الحجرات د. وسيم فتح الله.

كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧].

ثالثاً- بيان عواقب عدم التزام هذه الآداب:

لقد جاءت الآيات في هذه السورة بجملة من التنبيهات على خطورة العواقب المترتبة على ترك التزام منظومة الأخلاق القرآنية المعروضة، ففي سياق الأمر بالتثبت في الأخبار جاء التحذير من عاقبة الندم المترتبة على التصرف بغير علم وتثبُّت وتبيُّن، فقال تعالى: ﴿فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

وفي سياق النهي عن القبائح الاجتماعية -كالسخرية والتنابز واللمز- جاء التحذير من وقوع الظلم بين أفراد المجتمع نتيجة الاستهزاء بالغير والافتراء عليه ومبالغة الغير في الرد على تلك السخرية والافتراءات، فقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١] وهكذا.

رابعاً- تنمية الوازع النفسي للالتزام بهذه الأخلاق:

إن أحداً لا يستطيع أن يفرض التزام مبدأ من المبادئ أو خلقاً من الأخلاق بقوةٍ خارجية أو سلطة قانون، أما في الإسلام فكان الحل ضمن منظومة الأخلاق الإسلامية، وبكل بساطة في قوله تعالى في ختام هذه السورة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الحجرات: ١٨].

فاستشعار هذه الرقابة الدائمة من الله عز وجل كفيلٌ بتنمية الوازع النفسي في كل فردٍ بما يحقق التزامه بهذه الأخلاق والآداب، ولو كان في خلوة من الناس أو معزل عن القانون.

❁ ❁ ❁


الفصل الثالث
مشاهد من يوم
القيامة في سورة ق

المبحث الأول

علم الله تعالى وإحاطته بالإنسان

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾

المطلب الأول – الشرح:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾: آدم، وكل واحد من ذريته.

﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ﴾ أي: ما يختلج في سرِّه، وقلبه، وضميره، وفي هذا زجر عن المعاصي؛ التي يستخفى بها.

والوسوسة: حديث النفس، بمنـــزلة الكلام الخفي.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾: حبل الوريد: هو الأوداج، وهما العرقان العظيمان المحيطان بالحلقوم، وهو مثل يضرب في فرط القرب.

يبين الله تعالى قدرته على بعث الأموات من القبور يوم القيامة، بأنه الذي خلق الإنسان، وأنشأه من عدم، وأنه عالم بجميع أحواله وأعماله وأموره، حتى إنه ليعلم ما يتردد في نفسه من فكر، وما تحدثه به نفسه من عمل، خيراً كان أو شراً.

ومن فضل الله وكرمه أنه تجاوز عن وسوسة القلب، وحديث النفس، فقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى تجاوز لأمتي ما حدّثت به أنفسها ما لم تقل، أو تعمل»[1].

---

(١) مسلم في الإيمان، باب تجاوز الله حديث النفس، (١/١١٦)، رقم (١٢٧).

ثم يقول تعالى: إن الإنسان تحت سلطان الله وقهره، وإن ملائكة الرحمن المكلفين بحفظ الإنسان وإحصاء أعماله هم ملازمون له دائماً، حتى إنهم بالنسبة إليه أقرب من الوريد الذي يمتد في عنقه.

كما قال تعالى في المحتضر في سورة (الواقعة): ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الواقعة: ٨٥]، فإن المراد الملائكة بلا ريب.

قال العلماء: في هذه الآية هيبة وفزع وخوف لقوم، وروح وأنس وسكون قلب لقوم آخرين.

المطلب الثاني – الفوائد:

١– عموم علم الله تبارك وتعالى بالإنسان،حتى إنه سبحانه يعلم ما توسوس به نفسه.

٢– وجوب الحذر من أن يكتم الإنسان شيئاً يكرهه الله.

٣– عرضت سورة (ق) بشكل عام في عدة آيات منها، للنوازع الثلاثة التي قد تؤثر على الإنسان وتؤدي إلى هلاكه:

أ– وسوسة النفس البشرية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: ١٦].

ب– وسوسة الشيطان: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾﴾ [ق: ٢٣].

ج– الغفلة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

❁ ❁ ❁

المبحث الثاني

رقيبٌ وعتيدٌ

﴿إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ١٧ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ١٨﴾

المطلب الأول – الشرح:

﴿إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ﴾: إن الله تعالى عالم بجميع أحوال الإنسان. ومع ذلك فإنه وكل به ملكين عن يمينه وعن شماله ملكين بالليل، وملكين بالنهار، يرقبانه ويترصدانه، ويحصيان عليه كل قول أو عمل ويكتبانه إلزاماً للحجة. ملك عن اليمين يكتب الحسنات، وملك عن الشمال يكتب السيئات.

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «كاتبُ الحسناتِ على يمين الرجلِ، وكاتبُ السيئاتِ على يسارِهِ، وكاتبُ الحسناتِ أمينٌ على كاتبِ السَّيئات، فإذا عَمِلَ حَسَنَةً كتبَهَا صاحبُ اليَمِنِ عشراً، وإذا عمل سيئةً قال صاحب اليمين لصاحب الشِّمَالِ: دَعْهُ سَبْعَ سَاعَاتٍ؛ لَعَلَّهُ يُسَبِّحُ! أو يَسْتَغْفِرُ»[1].

﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ﴾، ﴿لَدَيۡهِ﴾: عنده.

﴿رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ أي: لا يصدر عن الإنسان لفظ أو كلمة إلا ولديه ملك حاضر معه، مراقب لأعماله يثبتها في صحيفته.

﴿عَتِيدٞ﴾:حاضر وجاهز ومهيأ للكتابة. رقيب: مراقب وحافظ للأعمال.

---

(١) البيهقي، باب في معالجة كل ذنب بالتوبة، (٥/٣٩٠) رقم (٧٠٤٩).

والمعروف والمشهور: أنهما ملكان: الأول: رقيب، وهو كاتب الحسنات، والثاني: عتيد وهو كاتب السيئات.

أو هما ملكان كل منهما موصوف بأنه رقيب أي: مراقب وحافظ للأعمال وعتيد أي: حاضر وجاهز ومهيأ للكتابة.

المطلب الثاني - الفوائد:

١- قال تعالى: ﴿قَعِيدٌ﴾، ولم يقل: قعيدان؛ وهما اثنان؛ لأنَّ المراد عن اليمين قعيد، وعن الشمال قعيد.

٢- دلت السورة صريحاً على أن الله سبحانه يعيد هذا الجسد بعينه الذى أطاع وعصى، فينعمه ويعذبه كما ينعم الروح التى آمنت بعينها ويعذب التى كفرت بعينها، لا أنه سبحانه يخلق روحاً أخرى غير هذه فينعمها ويعذبها.

٣- تعجب الكفار من عودهم بأعيانهم بعد أن مزقهم البلى وصاروا عظاماً ورفاتاً، فتعجبوا أن يكونوا هم بأعيانهم مبعوثين للجزاء ولهذا قالوا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الصافات: ١٦] وقالوا: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾ [ق: ٣]. ولو كان الجزاء إنما هو لأجسام غير هذه لم يكن ذلك بعثاً ولا رجعاً بل يكون ابتداءً، ولم يكن لقوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ [ق: ٤] كبير معنىً فإنه سبحانه جعل هذا جواباً لسؤال مقدر، وهو أنه يميز تلك الأجزاء التي اختلطت بالأرض واستحالت إلى العناصر بحيث لا تتميز، فأخبر سبحانه وتعالى أنه قد علم ما تنقصه الأرض من لحومهم وعظامهم وأشعارهم، وأنه كما هو عالم بتلك الأجزاء فهو قادر على تحصيلها وجمعها بعد تفرقها وتأليفها خلقاً جديداً.

٤- وجوب الحذر من القول أو العمل السيء، لأن هناك ملائكة يكتبون على الإنسان. عن عطاء بن أبي رباح ﷺ قال: (إن من كان قبلكم يكره فضول الكلام، وكانوا يعدون فضول الكلام ما عدا كتاب الله تبارك وتعالى أن تقرأه، أو أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، أو أن تنطق بحاجتك في معيشتك التي لا بد لك منها أتنكرون قوله تعالى:

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١﴾ [الانفطار: ١٠-١١].

﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾.

أما يستحي أحدكم أن لو نشرت عليه صحيفته التي أملاها صدر نهاره، أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه.



المبحث الثالث

سكرة الموت

﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ١٩﴾

المطلب الأول - الشرح:

﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ أي: غمرته، وشدته؛ التي تغشى الإنسان، وتغلب على عقله. ﴿بِٱلۡحَقِّۖ﴾ أي: بحقيقة الموت.

وقيل: بالحق من أمر الآخرة حتى يتبينه الإنسان ويراه بالعيان.

وقيل: بما يؤول إليه أمر الإنسان من السعادة، والشقاوة.

﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾ أي: يقال لمن جاءته سكرة الموت: ذلك الذي كنت عنه تميل وتهرب.

يقال: حاد عن الشيء يحيد: مال عنه، وعدل.

والمخاطب بذلك الإنسان بشكل عام أي كل الناس.

وقيل: هو الكافر.

والإنسان بشكل عام يعاني من سكرات الموت، سواء كان مؤمناً أم كافراً، وليس في ذلك دلالة على قربه من ربه أو بعده.

روي أنه لما حضرت الوفاةُ سيدَ الخلق، وحبيبَ رب العالمين ﷺ، كان عنده قدح ماء، فجعل يدخل يده فيه، ويمسح وجهه، ويقول: «لا إله إلا الله، إن للموت لسكرات! اللهم هون علي سكرات الموت!»[1]، وفاطمة رضي الله عنها تقول: (واكرباه لكربك يا أبتاه)، فيقول ﷺ: «لا كرب على أبيك بعد اليوم»[2].

---

(١) الطبراني في الكبير، باب ذكر أزواج النبي ﷺ، (٣١/٢٣)، رقم (٧٨).

(٢) ابن حبان (٥٩٢/١٤)، رقم (٦٦٢٢).

المطلب الثاني – الفوائد:

١– كل أحد يوم القيامة يكون مستبصراً حتى الكفار، يكونون يوم القيامة على الاستقامة، لكن لا ينفعهم ذلك. قال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

٢– يجب الحذر من القول أو العمل السيء، لأن هناك ملائكة يكتبون على الإنسان.

٣– يجب حفظ اللسان من الكلام المحرم، فإن كل كلمة ينطق بها الإنسان تكتب عليه.

قال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»[(١)].

وقال ﷺ: (من صمت نجا)[(٢)].

وقال ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»[(٣)].

وقال ﷺ: «من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة»[(٤)].

❁ ❁ ❁

---

(١) البخاري، باب حفظ اللسان، (٢٣٧٦/٥)، رقم (٦١١٠).

(٢) البيهقي، فصل في فضل السكوت عن كل مالا يعنيه، (٥١/٧)، رقم (٤٦٢٩).

(٣) البخاري في الأدب المفرد، باب يتخطى إلى صاحب المجلس، (٣٩١/١)، رقم (١١٤٤).

(٤) البخاري، باب حفظ اللسان، (٢٣٧٦/٥)، رقم (٦١٠٩).

المبحث الرابع

سائقٌ وشهيدٌ

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ٢٠ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ٢١ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ٢٢﴾

المطلب الأول – الشرح:

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ﴾: ونفخ في الصور نفخة واحدة، فذلك هو يوم القيامة قد جاءك بأهواله، وهو اليوم الذي أوعد الله الكافرين بأنه سيجزيهم فيه على كفرهم بالعذاب الأليم.

قال رسول الله ﷺ: «كيفَ أنتم؛ وصاحبُ القرن قد التقم القرنَ، وَحَنَى جبهتَهُ، وانتظر أن يُؤذَنَ لَهُ؟!» قالوا: يا رسول الله! كيف نقول؟ قال: «قُولوا: حَسْبُنَا اللهُ ونِعْمَ الوَكِيلُ!» فقال القومُ: «حَسْبُنَا اللهُ ونِعْمَ الوَكِيلُ!»[1].

﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ﴾ أي: ملك يسوقه إلى الحشر، وملك يشهد عليه بأعماله. عن يحيى بن رافع؛ قال: سمعت عثمان بن عفّان رضي الله عنه يخطب، فقرأ هذه الآية، فقال: (سائق يسوقها إلى الله تعالى، وشاهد يشهد عليها بما عملت).

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: (السائقُ: الملَك، والشهيدُ: العملُ).

قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤].

---

(١) ابن حبان، باب الأذكار، (١٠٥/٣)، رقم (٨٢٣).

وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٠].

﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾:

الغطاء: الحجاب، وهو حجاب الغفلة عن الآخرة.

يقال للإنسان في ذلك اليوم: إنك كنت في غفلة عن هذا اليوم وما فيه من أهوال وشدائد وقد انجلى لك ذلك، وظهر لك، حتى رأيته عياناً فزالت عنك هذه الغفلة. ويؤيده قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

﴿فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ أي: الذي كان على قلبك وسمعك وبصرك في الدنيا، والمراد: ما كان من أثر الغفلة، فهو استعارة؛ إذ شبه الغطاء الحاجب لأمور المعاد الناتج من الغفلة، والانهماك في المحسوسات، والإلف بها، وقصور النظر عليها، بالغطاء الذي يمنع العين من الإبصار.

﴿فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾: قوي ثابت نافذ، فقد جعلت الغفلة كأنها غطاء غطَّى بها جسده كله، أو غشاوة غطَّى بها عينيه، فهو لا يبصر، فإذا كان يوم القيامة؛ تيقَّظ، وزالت عنه الغفلة، وغطاؤها، فيبصر ما لم يبصره من الحق، ورجع بصره الكليل عن الإبصار لغفلته، جديداً لتيقظه.

المطلب الثاني- فوائد عامة من سورة (قٓ):

١- النفخ في الصور ثابت بالكتاب والسنة:

فمن الكتاب:

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١].

وقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

وقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٩].

وقوله ﷻ: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ [ص: ١٥].

ومن السنة:

عن عبد الله بن عمرو قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: ما الصور؟ قال: «قرن ينفخ فيه»(١).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتاً ورفع ليتاً وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله فيصعق أو يصعق الناس ثم يرسل الله تعالى مطراً كأنه الطل فينبت منه أجساد الناس ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ثم يقال: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم وقفوهم إنهم مسئولون»(٢).

والنافخ في الصور هو إسرافيل عليه السلام.

أما عدد النفخات:

فالقول الأرجح أنها نفختان: نفخة الصعق ونفخة البعث.

ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

---

(١) أبو داود، باب في ذكر البعث والصور، (٣٧٨/٤)، رقم (٤٧٤٤).

(٢) مسلم، كتاب الفتن باب خروج الدجال، (٢٢٥٨/٤)، رقم (٣٩٤٠).

وقوله تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٤٩-٥١].

فقوله تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ﴾ [يس: ٤٩]. هذه النفخة الأولى.

وقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١] هذه هي النفخة الثانية.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما بين النفختين أربعون»، قالوا: يا أبا هريرة: أربعون يوماً ؟ قال: أبيت. قالوا: أربعون شهراً ؟ قال: أبيت. قالوا: أربعون سنة: قال: أبيت[1].

٢- في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ جاء التعبير عن المستقبل بالماضي في الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ﴾ وذلك لتحقق الوقوع.

٣- وتختم الآيات في هذه السورة بتذكرة الناس بالقرآن الكريم لأن فيه التذكرة لمن خاف عذاب الله وأراد أن يتقيه فينجو بفضل الله تعالى ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ [ق: ٤٥].

٤- في السور التي تبدأ بالأحرف المقطعة تطبع السورة بطابع تلك الأحرف، فعلى سبيل المثال: سورة (ق) تطبع السورة بالقاف: (القرآن، قال،

---

(١) مسلم، باب ما بين النفختين، (٤/٢٢٧٠)، رقم (٢٩٥٥).

تنقص، فوقهم، باسقات، قبلهم، قوم، حق، خلق، أقرب، خلقنا، قعيد، وغيرها).

٥- في سورة (ق) ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾﴾ [ق: ٣٦]. عبر عن الأمم الذين أُهلكوا بالقرن فما القرن؟

أ - **القرن** في أحد معانيه: مائة عام.

ب- **القرن في معنى آخر:** هو مجموعة من الناس يعيشون في زمن واحد.

إذا ذهب القرنُ الذي أنت فيهِمُ وخُلفت في قرنٍ فأنت غريب

المطلب الثالث- تناسب خواتيم سورة (الحجرات) مع فواتح سورة (ق):

في أواخر الحجرات ذكر الله تعالى المؤمنين وذكر الذين لم يدخل الإيمان في قلوبهم ممن أسلم، فقال تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ [الحجرات: ١٤].

وجاءت سورة (ق) تتحدث عن الكافرين، فقال عز وجل: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾ [ق: ٢-٣].

إذن استوفت خواتيم سورة (الحجرات) وأوائل سورة (ق) عموم الخلق بالنسبة للإيمان:

أ - المؤمن الذي آمن إيماناً حقيقياً.

ب- المسلم الذي أسلم و لم يدخل الإيمان في قلبه.

جـ- الكافر الذي أظهر الكفر وأبطنه، و لم يؤمن لا إيماناً حقيقياً ولا ظاهراً.

المطلب الرابع – تناسب فواتح سورة (ق) مع خواتيمها:

١– قال تعالى في بداية السورة: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [ق: ١].

وقال عز وجل في آخرها ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]. فذكر القرآن الكريم في البداية والنهاية.

٢– في البداية قال: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ﴾ [ق: ٣] يعني رجعهم إلى الدنيا بعيد، فهم لا يقتنعون أن يرجعهم الله تعالى إلى الحياة، فقال ﷻ بالرد عليهم في خواتيم السورة: ﴿يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ﴾ [ق: ٤٤].

هم قالوا ﴿ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ﴾، والله تعالى يقول: ﴿ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ﴾ وكأن الآية تكذبهم فيما ذهبوا إليه من مزاعم.

٣– قال تعالى في بداية السورة: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ﴾ [ق: ٦]. وقال ﷻ في نهايتها: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ﴾[ق: ٣٨].

اللّغوب أي الكلل والفتور، وهذا ارتباط وثيق واضح.

المطلب الخامس – تناسب خواتيم سورة (ق) مع فواتح (سورة الذاريات):

١– ختمت (سورة ق) بالحديث عن يوم الحشر، فقال تعالى: ﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ٤١ يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ﴾ [ق: ٤١–٤٢].

وقال تعالى في (سورة الذاريات): ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ﴾.

كأنما استكمال للموضوع نفسه في (سورة ق).

٢- ذكر تعالى في (سورة الذاريات) عاقبة المكذبين وعاقبة المؤمنين: ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾﴾ [الذاريات: ١٢-١٥].

كذلك ذكر تعالى في (سورة ق) الصنفين:

أ- الكفار: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [ق: ٢٤].

تقابل المكذبين: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات: ١٣].

ب- المتقون: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٣١].

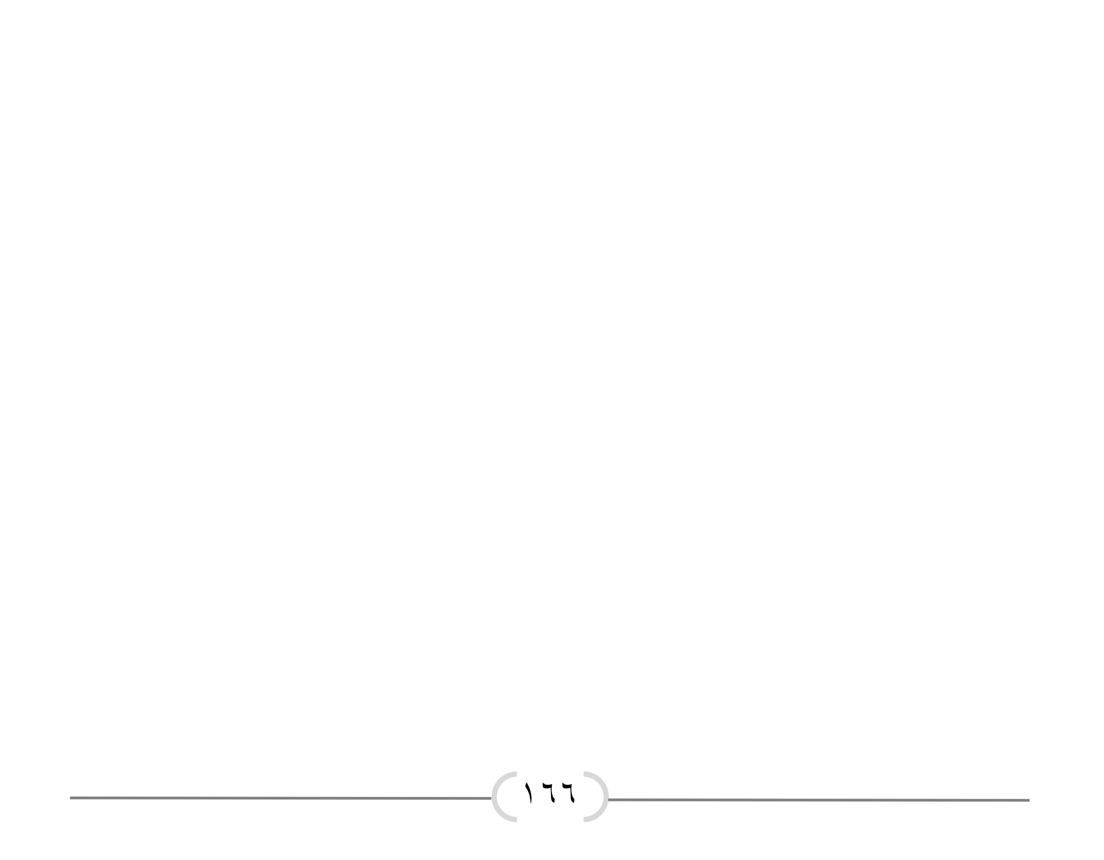
تقابل: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الذاريات: ١٥].





الفصل الرابع

سورة النساء



المبحث الأول

مقدمة عامة عن السورة

سورة (النساء) أطول سورة مدنية بعد سورة البقرة، وهي سورة مليئة بالأحكام التي ينظم بها المؤمنون شؤونهم الداخلية والأحكام التي يحفظون بمراعاتها وتنفيذها كيانهم واستقلالهم، ويدفعون بها كيد الكائدين وإغارة المحاربين.

وهي السورة الرابعة في ترتيب القرآن الكريم، والسورة الثالثة والتسعون بترتيب النـــزول.

والسورة تمثل الجهود التي بذلت في سبيل إنشاء المجتمع الإسلامي، وحماية ذلك المجتمع الذي انبثق وأنشئ وفق المنهج الرباني، فصورت السورة طبيعة هذا المنهج في التعامل مع الإنسان، وتفاعل الإنسان مع المنهج الرباني، حيث كان المجتمع في حالة تحول وتطهير من رواسب الجاهلية. وذلك يتطلب التعريف التام بأعداء المسلمين من المشركين وأهل الكتاب وخاصة اليهود، ثم بأعدائهم الموجودين ضمنهم مما يجعل خطرهم أكبر وهم ضعاف الإيمان والمنافقون، فبينت السورة كل هذه الأصناف وكشفت وسائلهم وحيلهم ليكون المجتمع الإسلامي حذراً منهم أشد الحذر فلا يستطيعوا بلوغ مآربهم فيه(١).

تسمية السورة(٢):

سميت السورة (النساء) لكثرة ما ورد فيها من الأحكام الـــتي تتعلـــق بالنساء بدرجة لم توجد في غيرها من السور، ولذا أطلق عليها (سورة النساء

---

(١) انظر في ظلال القرآن، قطب (٤/٥٥٤) وما بعدها.

(٢) انظر التحرير والتنوير، ابن عاشور (٤/٢١١) والتفسير المنير، الزحيلي (٤/٢١٩).

الكبرى) في مقابلة (سورة النساء الصغرى) التي عرفت في القـــرآن الكـــريم (بسورة الطلاق).

نزول السورة[1]:

نزلت السورة بالمدينة المنورة بعد الممتحنة وقبل الزلزلة لما ورد عن السيدة عائشة[2] رضي الله عنها: (ما نزلت سورة النساء إلا وأنا عند رسول الله ﷺ). ومن المعلوم أنها بدأت حياتها مع النبي ﷺ في شوال سنة الهجرة.

عدد آيات السورة (١٧٦) آية، و(٣٠٤٥) خمس وأربعون وثلاثة آلاف كلمة، و(١٦٠٣٠) وثلاثون حرفاً وستة عشر ألف حرف.

لم تنـــزل السورة كلها دفعة واحدة وإنما كان أول نزولها بعد الممتحنة في السنة السادسة وامتد نزولها إلى ما بعد السنة الثامنة للهجرة.

فضل السورة:

عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود[3] عن أبيه رضي الله عنه قال: (إن في سورة النساء لخمس آيات ما يسرني أن لي بها الدنيا وما فيها:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٤٠ ﴾ [النساء: ٤٠].

---

(١) انظر البرهان، الزركشي (١/١٩٤) الإتقان، السيوطي (١/١١) والتحرير ابـــن عاشور (٤/٢١١).

(٢) عائشة بنت أبي بكر الصديق -رضي الله عنهما- زوج النبي ﷺ كانـــت عالمـــة يسألها الصحابة عن أمور دينهم، الإصابة: (٤/٣٤٨).

(٣) عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود الهذلي من كبـــار التـــابعين، ت (٩) هـــ، موسوعة الحديث الشريف.

وقوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء: ٣١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء: ٤٨].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ [النساء: ٦٤].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء: ١١٠][1].

مناسبة السورة لما قبلها[2]:

ختمت سورة آل عمران بأمر المؤمنين بالتقوى، وافتتحت النساء بالأمر بالتقوى لجميع الناس فقال تعالى في آل عمران: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وقال تعالى في النساء: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النساء: ١].

وتحدثت سورة النساء وآل عمران عن الجهاد في سبيل الله.

❁ ❁ ❁

(١) الحاكم في المستدرك، تفسير سورة النساء، (٣/١٣٧)، رقم (٣١٩٤).

(٢) انظر البحر المحيط، أبو حيان (٣/١٥٣) ونظم الدرر، البقاعي (٥/١٣) وتناسق الدرر، السيوطي (٤٤).

المبحث الثاني

موضوعات السورة وأغراضها الأساسية

المطلب الأول - وحدة الأصل الإنساني[1]:

نبه الله تعالى في بداية السورة على قدرته ﷻ التي خلق بها البشر كلهم من نفس واحدة، مشيراً إلى أنهم كلهم من أصل واحد، فكلهم لآدم وآدم من تراب، وأنه خلق من تلك النفس زوجها وتناسل منهما البشر ذكوراً وإناثاً، وجعل من تلك الذرية رابطة الأسرة القائمة على الرحم وصلة الدم والقرابة مما يدعوهم إلى التراحم والتعاون، وكل ذلك دليل على القدرة الإلهية الباهرة التي تستوجب التقوى وتحذر من العقاب، يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [النساء: ١].

وفي التذكير بالأصل الإنساني الواحد دلالة على وجوب التزام حدود الإنسانية، وأن الإنسان أخو الإنسان أحب أم كره، والأخوة تقتضي المسالمة والتعاون ونبذ المحاربة والخصومة والتقاطع.

المطلب الثاني - أموال اليتامى[2]:

للقرآن الكريم عناية خاصة باليتيم لصغره وعجزه عن القيام بمصالحه التي تحفظ له حسن الحياة في المستقبل، وتقي الأمة شر الضرر الذي يحيق بها من عدم تربيته لفقده الأب الذي يكفله ويهذبه ويرعاه.

---

(١) انظر روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، محمود الألوسي البغدادي (١٩/٤) ومفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي (١٣٢/٩).

(٢) انظر في ظلال القرآن، قطب (٥٦/١) وتفسير القرآن الكريم، شلتوت (١٧٧).

وقد ظهرت العناية باليتيم في سورة النساء ظهوراً واضحاً، حيث أمرت بالمحافظة على أموال اليتامى، وحذرت من دفع أموالهم إليهم إلا بعد اختبارهم، ثم تحذر تحذيراً شديداً من إهمال شأن اليتامى وأكل أموالهم وتذكر الوعيد في ذلك. قال تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ [النساء: ٢].

وقال تعالى: ﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾ [النساء: ٦]

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء: ١٠].

ثم تنتقل السورة لتخصص النساء اليتيمات بالذكر للانتباه إلى حقوقهن وعدم إهمال شؤونهن بسبب فقدهن الأب، فقد جرت العادة في الجاهلية، ألا يعطوا اليتيمة مالها من الميراث إن كانوا أولياء عليها، فأمر الله في هذه السورة أن يعاملوا اليتامى بالعدل سواء كن أطفالاً ضعافاً أم نساء، وأن على المجتمع أن يعتني بشؤون اليتامى، ولا يدع أحد أفراده يظلم اليتيم أو يتساهل في حقوقه.

قال تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾﴾ [النساء: ١٢٧].

المطلب الثالث – الميراث[1]:

بينت آيات (سورة النساء) الوارثين والوارثات، ونصيب كل وارث بالأوصاف التي قررها الله تعالى سبباً في استحقاق الإرث، كالنبوة والأبوة والأمومة والزوجية والأخوة، وقد سوَّت السورة بين الذكر والأنثى كما سوَّت بين الصغير والكبير، وجعلت للكل حقاً في الميراث، كما اعتبرت للزوجية مكانها وجعلتها سبباً من أسباب استحقاق الإرث، وبهذا أبطلت ما كان عليه العرب من جعل الإرث بالنسب مقصوراً على الرجال دون النساء والأطفال، وقد كانوا يقولون في ذلك: (لا يرث إلا من طاعن بالرماح وذاد عن الحوزة وحاز الغنيمة).

وآيات الميراث في السورة هي:

قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾﴾ [النساء: ٧-٨].

وقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا

---

(١) انظر مفاتيح الغيب، الرازي (١٥٨/٩) والإسلام عقيدة وشريعة، شلتوت (٢٤٢) وما بعدها وتفسير القرآن الكريم، شلتوت (١٨٧).

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [النساء: ١١-١٢].

وقوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾ [النساء: ١٧٦].

المطلب الرابع- عقوبة الزنا في أول الإسلام:

بينت (سورة النساء) حكم الزنا في بداية التشريع الإسلامي، حيث إن حكم الزنا قد تدرج على مراحل كحكم الخمر، وذلك لأنهما كانا من العادات المتأصلة في الجاهلية، ولا يمكن اجتثاث تلك العادات فجأة وبأمر جازم، فجاء في سورة النساء الحكم الأول وهو أن المرأة إذا زنت وثبت فعلها بالأدلة الشرعية، فعقوبتها الحبس في البيت حتى تأتي ساعة منيتها،أو يجعل الله لها سبيلاً.

أما الرجل فكانت عقوبة المحصن والبكر واحدة لا فرق بينهما، وهي التوبيخ والشتم والسب.

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ١٥ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ١٦﴾ [النساء: ١٥-١٦]، فالآية الأولى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ تدل على أن النساء إذا فعلن الفاحشة فعقوبتهن الحبس، ولفظ (اللذان) في الآية الثانية يبين أنهما البكر والمحصن من الذكور على حد سواء.

وعندما نزلت سورة النور نسخت عقوبة الحبس والأذى والتوبيخ، وصار حد الزاني البكر الجلد مئة جلدة ذكراً كان أو أنثى.

وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ﴾ [النور: ٢]، أما الزاني المحصن فحده الرجم ذكراً كان أو أنثى، وذلك بفعل رسول الله ﷺ حيث رجم عدداً من الزناة وتواترت الأخبار في ذلك.

وقد وجد من يقول إن قوله تعالى ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ١٥﴾ [النساء: ١٥] هي في عقوبة السحاق أي الشذوذ المثلي بين النساء، وليست منسوخة كما يقول جمهور العلماء. وفي الرد على هؤلاء نقول:

١- إن رسول الله ﷺ قال: «خذوا عني خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلا البكر بالبكر جلد مئة وتغريب عام والثيب بالثيب جلد مئة والرجم» فكانت عبارة «قد جعل الله لهن سبيلاً» تدل على أن هذا الحديث قد

بيّن السبيل الذي جاء في الآية: ﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥].

وقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان الحكم كذلك حتى أنزل الله سورة النور فنسخا بالجلد أو الرجم، وورد عن رسول الله ﷺ قوله: «لا حبس بعد سورة النساء»[١].

٢- إن السحاق هو جريمة اجتماعية ولكنها لا تصل إلى خطورة جريمة الزنا فلا يمكن أن تكون عقوبتها أشد من عقوبة الزنا فيما لو كانت فاعلة هذه الجريمة بكراً فلا يعقل أن تحبس في بيتها حتى الموت أما لو زنت فتجلد مئة جلدة ثم تخرج وتمارس حياتها بشكل طبيعي.

٣- لم يرد في قول أحد من فقهاء السلف وعلماء التفسير أن فسروا الآية على أنها عقوبة للسحاق، فهل تركوا فهمها لنا أم لم يفهموها؟؟!.

المطلب الخامس- التوبة وشروطها في سورة النساء[٢]:

جاءت الآيات (في سورة النساء) عامة لكل من عمل ذنباً، ودعوة واضحة للمذنبين ليتوبوا إلى الله تعالى، وقد اتفقت الأمة على أن التوبة فرض على المؤمنين لقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور: ٣١].

وإذا تاب العبد فالله سبحانه بالخيار إن شاء قبل توبته وإن شاء لم يقبلها، وليس قبول التوبة واجباً عليه تعالى، فهو خالق الخلق ومالكهم والمكلّف لهم، فلا يصح القول بوجوب شيء عليه.

---

(١) البيهقي، باب من قال لا حبس عن فرائض الله عز وجل، (٦/١٦٢)، رقم (١١٦٨٦).

(٢) انظر الجامع القرطبي (٥/٩٠) وما بعدها.

غير أنه سبحانه وهو الصادق في وعده، وقد أخبر بأنه يقبل التوبة عن العاصين من عباده بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء: ٤٨].

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الشورى: ٢٥].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [التوبة: ١٠٤].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ [طه: ٨٢].

إلا أن هذه التوبة التي وعد الله تعالى بقبولها، قد وضع لها شروطاً لتكون توبة نصوحاً مقبولة عند الله تعالى، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾ [النساء: ١٧-١٨].

وهذه الشروط هي:

١- أن يقع الذنب بجهالة أي بغلبة من نفسه الأمارة بالسوء لا بعمد وإصرار.

٢- الندم بالقلب وترك المعصية في الحال، أي في زمن قريب من زمن الذنب، قبل أن يداهمه المرض أو يشعر بدنو الموت، حيث يكون في حالة الرجاء، ويصح منه حينئذ الندم والعزم على ترك الفعل.

٣- العزم على ألا يعود إلى مثل ما فعل.

٤- أن يكون ذلك حياء من الله تعالى لا من غيره.

فإذا اختل شرط من هذه الشروط، لم تقبل التوبة.

المطلب السادس - المحرمات من النساء:

قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةًۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ [النساء: ٢٣-٢٤].

بين الله تعالى في السورة أنواع المحرمات من النساء، وهن كالتالي:

١- **نكاح امرأة الأب:** لأنها تشبه الأم، ولأنه فعل قبيح شنيع لا تألفه الطباع السليمة، وقد سماه العرب (النكاح المقت) ويسمى ولد الرجل من امرأة أبيه (مقيتاً).

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾ [النساء: ٢٢].

٢- **المحرمات من النسب** وذلك يشمل:

أ- **نكاح الأصول**، الأمهات والجدات: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ﴾.

ب- **نكاح الفروع**، البنات وبنات الأولاد من الأبناء والبناء، في قوله تعالى: ﴿وَبَنَاتُكُمْ ﴾.

ج- **نكاح القريبات** كالأخوات الشقيقات أو لأب أو لأم: ﴿وَأَخَوَاتُكُمْ ﴾.

د- **نكاح العمات والخالات**: ﴿وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ ﴾.

هـ- **نكاح بنات الإخوة** من جهة أحد الأبوين أوكليهما: ﴿وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ ﴾.

٣- **المحرمات بسبب الرضاع**: إذ يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب:

﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ ﴾.

فكل أقارب الأم المرضع هم أقارب للرضيع، المرضعة تصبح أماً للرضيع، وابنتها أخته، وزوجها أبوه، وأولادها إخوته.

عن ابن عباس[١] رضي الله عنه لما طلب إليه أن يتزوج ابنة عمه حمزة[٢] قال: (إنها لا تحل لي، إنها ابنة أخي من الرضاعة، ويحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب)[٣].

ولا يحرّم الرضاع إلا في سن الصغر، وهو ضمن الحولين، لقوله تعالى: ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

---

(١) عبد الله بن عباس: ابن عم رسول الله ﷺ حبر الأمة وترجمان القرآن، ت (٦٥) هـ الإصابة: (٣٢٢/٢).

(٢) حمزة بن عبد المطلب: عم رسول الله ﷺ من شجعان الصحابة، ت(٣) هـ الإصابة: (٣٥٣/١).

(٣) الطبراني في الكبير، باب من اسمه حمزة، (٢٩١/١٠)، رقم (٢٩٢٢).

يقول عبد الله بن مسعود ﵁ (لا رضاعة إلا ما كان في الحولين)[1].

٤- **المحرمات بسبب المصاهرة:** وهن ثلاثة أنواع تكريماً لتلك الرابطة:

النوع الأول: أم الزوجة التي دخل بها الزوج، أو عقد عليها، إذ لا يشترط الدخول بل يكفي مجرد العقد، والجدة كالأم، لقوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾.

النوع الثاني: الربيبة وهي ابنة الزوجة من غيره، بشرط الدخول بأمها فإن لم يدخل بالأم بل عقد عليها فقط فلا يحرم عليه بناتها: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾. وهذا التقييد في الآية، أي كون الربيبة في حجر زوج أمها، خرج مخرج الغالب، وليس هو قيد في التحريم، فالربيبة حرام على زوج أمها سواء كانت في حجره أو لم تكن.

النوع الثالث: زوجة الابن وابن الابن وكذا زوجة الابن من الرضاع، تحرم على الأب والجد: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ والحليلة هي الزوجة.

٥- **محرمات بسبب عارض:** كالجمع بين الأختين، أو بين المرأة وعمتها أو خالتها وابنة أختها وابنة خالتها. وضابط هذه الحرمة، كل امرأتين بينهما قرابة من جهة ذكر أو أنثى حرم على الزوج الجمع بينهما وتظل الحرمة قائمة لو طلق إحداهما حتى تنتهي عدتها.

---

(١) مالك في الرضاع، باب ما جاء في الرضاعة بعد الكبر، (٦٠٧/٥)، رقم (١٢٩٠).

قال رسول الله ﷺ: «لا تنكح المرأة على عمتها ولا العمة على بنت أخيها ولا المرأة على خالتها ولا الخالة على بنت أختها ولا تنكح الكبرى على الصغرى ولا الصغرى على الكبرى»[1].

وأشار النبي ﷺ في رواية: «إنكم إذا فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم»[2].

٦- **باقي المحرمات** من النساء: وهن النساء المتزوجات.

المطلب السابع – النهي عن أكل أموال الناس بالباطل[3]:

نهت الآية في (سورة النساء) عن أكل أموال الناس بالباطل،

والباطل: هو الحصول على الأموال بغير الوجه الشرعي.

كالسرقة والغصب والرشوة وأجرة البغاء والربا، وما إلى ذلك مما نهى الإسلام عنه وله أثره السيئ في سلامة المجتمع: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ** ﴾ [النساء: ٢٩].

ولما كان معظم أسباب الاعتداء تطلع النفوس المريضة إلى ما بيد الآخرين وحسدها عليه، نهى الله عز وجل عن ذلك وبيّن أن لكل كاسب وعامل ثمرة عمله وكسبه، فليستغل كل إنسان مواهبه وقدرته في الكسب والعمل ولا يتطلع إلى شيء غيره، قال تعالى: ﴿**وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ٣٢**﴾ [النساء: ٣٢].

---

(١) أبو داود في النكاح باب ما يكره أن يجمع بينهن من النساء، (٢/١٨٣)، رقم (١٧٦٨).

(٢) ابن ماجة في النكاح، باب لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها، (١/٦٢١)، رقم (١٩٣٠).

(٣) انظر التفسير المنير، زحيلي (٥/٣١) وتفسير القرآن، شلتوت (١٩٩) وما بعدها.

المطلب الثامن - تنظيم العلاقات الزوجية[1]:

١- بينت (سورة النساء) أن **المرأة هي أحد العنصرين** اللذين تكاثر عنهما الإنسان، وجعلت ذلك نعمة توجب على الناس تقوى الله ومراقبته، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١].

٢- قررت **مساواة الرجال بالنساء** في الخلق والحقوق والواجبات الشرعية.

٣- شرعت **الكسب** للنساء كما هو مشروع للرجال.

٤- أرشدت كلاً منهما إلى **طلب المال الحلال** عن طريق العمل والجد.

٥- بينت أنه ليس للرجل أن يسلب المرأة العمل الذي خلقت له، كما أنه ليس للمرأة أن تطمع فيما وراء مؤهلاتها الطبيعية، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٣٢-٣٣].

٦- قررت أن للنساء ثواب أعمالهن الصالحة، وأن مسؤوليتهن عن أعمالهن مسؤولية مستقلة، **فالمرأة إنسان مكلف مسؤول**، قال الله تعالى:

---

(١) انظر في ظلال القرآن، قطب (٢/٦٤٢) وتفسير القرآن، شلتوت (١٦٩) وما بعدها والتفسير المنير، زحيلي (٥/٤٣).

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء: ١٢٤].

٧- رفع الإسلام شأن المرأة أن تكون **متاعاً موروثاً**، قال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾﴾ [النساء: ١٩-٢٠].

٨- جعل لها حقوقاً مالية كالمهر عند طلب الزواج بها، قال عز وجل: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ [النساء: ٤].

وقد أخرج القرآن عقد الزواج هذا عن أن يكون عقد تمليك، وسمى المال الذي يدفعه الرجل للمرأة (**صدقات**) ووصفه بأنه نحلة.

و(**النحلة**): ما يمنح عن طيب النفس دون أن يكون عوضاً عن شيء، فالصلة بين الزوجين أشرف من أن يجعل عوضها دراهم معدودة، ولذلك نهى الله تعالى أن يأخذ الزوج شيئاً من المهر بعد أن يدفعه إن هو أراد حل العقد بينه وبين زوجه، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢٠-٢١].

٩- شرع الإسلام **نظاماً للزواج**، فأمر الزوج أن يتخير زوجته من العناصر الطيبة وهنّ الحرائر المؤمنات، ومنع العدول عنهن إلى غيرهن إلا عند العجز عنهن مع خوف العنت، وذلك له قيمته في أساس الأسرة وفي إنجاب الولد وتربيته في البيئة الصالحة. قال الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النساء: ٢٥].

١٠- تحدثت السورة عن أمور اتخذها أعداء دين الله ذريعة للدس على الشريعة الإسلامية ومنها:

أ - قوامة الرجل:

بينت السورة أن الرجل **قيّم على المرأة**، فهو كبيرها ومؤدبها إذا اعوجت وهو القائم عليها بالحماية والرعاية، فقد سوى الله تعالى بين الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات إلا أنه جعل **للرجل درجة** على المرأة، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وهذه الدرجة إنما هي **درجة الإشراف والرعاية وليست درجة الاستعباد والتسخير** كما يصورها المغرضون، فقد قال الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى

ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [النساء: ٣٤].

مما يوضح أن **سبب القوامة** أمران:

١- **وجود مقومات جسدية خَلْقية**، وهي أن الرجل قوي العقل معتدل العاطفة قوي البنية، لذلك خص الله تعالى الرجل بالرسالة والنبوة والإمامة والقضاء وإقامة الشعائر كالأذان والإقامة والخطبة والجمعة والجهاد، وجعل الطلاق بيده، وخصه بالشهادات في الجنايات والحدود.

٢- وجوب **الإنفاق** على الزوجة والقريبة وإلزامه على أنه رمز تكريم للمرأة، ولذلك خصه بزيادة النصيب في الميراث والتعصيب.

أصناف النساء أمام هذه الرياسة:

أ- **صالحات**: من شأنهن القنوت والسكون والطاعة لله فيما يأمر به، ومنه القيام بحقوق الزوجية والرياسة المنزلية، وهذا الصنف ليس للزوج عليه شيء من سلطان التأديب، قال الله تعالى: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾ [النساء: ٣٤].

ب- **غير صالحات**: وهن اللاتي يحاولن الخروج على حقوق الزوجية، ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [النساء: ٣٤].

وقد وضعت السورة لردعهن وإصلاحهن طريقين واضحين:

أ-الإشراف والرياسة: حيث وضعت أساليب من العلاج تتدرج من الوعظ إلى الهجر ثم الضرب، وقد جعل القرآن الكريم الضرب آخر الوسائل الإصلاحية إشارة إلى أنه لا يلجأ إليه إلا عند الضرورة كدواء أخير ويجب أن يكون خفيفاً غير مبرح، كالضرب الخفيف باليد على الكتف ثلاث مرات أو بالسواك، أو بعود خفيف،لأن المقصود منه الإصلاح لا غير.

وينبغي أن لا يوالي الرجل الضرب في محل واحد، وأن يتقي الوجه فإنه مجمع المحاسن، ولا يضربها بسوط ولا بعصاً، وأن يراعي التخفيف لأن المقصود هو الزجر والتأديب لا الإيلام والإيذاء كما يفعل بعض الجهلة، حتى ظن المغرضون أنه طغيان لا يتفق مع كرامة الزوجة، والحق أنه نوع من التأديب الخفيف الذي يحافظ على حياة الأسرة، ومع ذلك فقد كرهه النبي ﷺ وذلك في قوله ﷺ: «لا تضربوا إماء الله»، فجاء سيدنا عمر رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ فقال: (ذئرن النساء على أزواجهن، فرخص في ضربهن)، فأطاف بآل رسول الله ﷺ نساء كثير يشكون أزواجهن، فقال ﷺ: «لقد طاف بآل محمد نساء كثير يشكون أزواجهن، ليس أولئك بخياركم»[1]، وقال سيدنا عمر رضي الله عنه: (ولا تجدون أولئك خياركم)[2].

ب- الشقاق والتحكيم: الطريق الثاني الذي شرعه الله عز وجل لحل الخلافات وردع غير الصالحات عن نشوزهن هو التحكيم، فعندما يعجز الرجل عن

---

(١) أبو داود في النكاح، باب ضرب النساء، (٢/٢١١)، رقم (٢١٤٦) وذئرت المرأة: نشزت واجترأت. انظر جامع الأصول، ابن الأثير الجزري: (٦/٥٠٦).

(٢) أبو داود في النكاح، باب ضرب النساء، (٢/٢١١)، رقم (٢١٤٦).

العلاج بالطرق السابقة، يلجأ إلى تحكيم حكمين، أحدهما من أهله والآخر من أهلها، للسعي في إصلاح ذات بينهما بعد استطلاع حقيقة الحال بين الزوجين ومعرفة سبب الخلاف.

وقد خاطب الله تعالى بهذا العلاج جماعة المسلمين تحقيقاً لما يجب أن يكون بينهم من التكافل والتضامن على حفظ الأسرة والبيوت فقال سبحانه وتعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ﴿٣٤﴾ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا ﴿٣٥﴾﴾ [النساء: ٣٤-٣٥].

وقال أيضاً: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿١٢٨﴾﴾ [النساء: ١٢٨].

ب- تعدد الزوجات[1]:

قال تعالى: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾ [النساء: ٣].

---

(١) انظر الإسلام عقيدة وشريعة، شلتوت (١٨٠) وما بعدها.

يبين الله تعالى مشروعية تعدد الزوجات ويخاطب المـؤمنين بوجـوب العدل بين النساء حال التعدد، ويأمرهم أن لا يجمعوا أكثر من أربع ليتمكنوا من العدل والقسم بينهن، وبين الله تعالى أحوال الرجال زمراً متنوعة، فمنهم من يتزوج اثنتين، ومنهم من يتزوج ثلاثاً، ومنهم من يتزوج أربعاً، وعـدد الأربع هو الحد الأقصى الذي يمكن معه العدل بين الزوجات.

والعدل المطلوب بين النساء هو العدل المادي: أي القسم بينهن في المبيت والتسوية في نفقات المعيشة من مأكل ومشرب وملبس ومسكن، أما العدل المعنوي أو الأمر القلبي وهو **الميل والحب فغير مطلوب** لأنه ليس في وسع الإنسان ولا في طاقته، لذلك كان ﷺ يميل إلى عائشة رضي الله عنها أكثر من غيرها فيقول ﷺ: «اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما لا أملك»[1]. أي: من ميل القلب.

وقال تعالى مبيناً هذا الأمر: ﴿ **وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ١٢٩** ﴾ [النساء: ١٢٩].

يقول الإمام الغزالي[2] في هذا الموضوع: (ومن الطباع ما تغلب عليه الشهوة بحيث لا تحصنه المرأة الواحدة فيستحب لصاحبها الزيادة عن الواحدة

(١) أبو داود في النكاح، باب في القسم بين النسـاء، (٢٠٨/٢)، رقـم (٢١٣٦)، والمعنى: أنه ﷺ كان يقسم بين نسائه فيعدل، أما المحبة لعائشة رضي الله عنها فهي شيء قلبي يختص به الله تعالى ولا يملكه محمد ﷺ.

(٢) أبو حامد الغزالي: محمد بن محمد حجة الإسلام، فيلسوف متصوف، ت (٥٠٥) هـ وفيات الأعيان: (٢١٦/٤).

إلى الأربع، فإن يسر الله له مودة ورحمة واطمأن قلبه بهن، وإلا فيستحب له الاستبدال).

ثم يقول الغزالي: (ومتى كان الباعث معلوماً فينبغي أن يكون العلاج بقدر العلة، فالمراد تسكين النفس، فينظر إليه في الكثرة والقلة)[1].

ويشير الغزالي بهذا إلى أن التعدد لتحصين النفس أمر مرغوب فيه شرعاً، أي مع أخذ النفس بالعدل الواجب بين الزوجات، ويشير أيضاً إلى أن الذين يعددون زوجاتهم لمجرد الانتقال من ذوق إلى ذوق دون حاجة إليه في تحصين النفس وعفتها عن الحرام يعملون عملاً تأباه الشريعة ويمقته أدب الدين.

المطلب التاسع – طاعة الرسول ﷺ وعقوبة معاداته[2]:

بين الله تعالى في سورة النساء، أن طاعة رسوله الكريم ﷺ مفروضة بأمر الله تعالى، وعلى المؤمنين به أن يتبعوا رسوله الكريم ﷺ لأنه مؤد عن الله، فطاعته من طاعة الله تعالى، ومعصيته معصية لله وذلك في قوله تعالى:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ٦٤].

وقد أقسم الله تعالى بربوبيته لرسوله ﷺ، أنه لا يؤمن إيماناً حقاً، إلا من توفرت فيه هذه الصفات الثلاث:

١- أن **يحكّموا الرسول** ﷺ في قضايا المنازعات التي يختلفون فيها، فلا يؤمن أحد حتى يحكّم الرسول ﷺ في جميع الأمور، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطناً وظاهراً.

---

(١) انظر إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي (٢/٣٠).

(٢) انظر الجامع، القرطبي (٥/٢٦٥) وفي ظلال القرآن، قطب (٢/٦٩٠).

٢- أن **لا يجدوا ضيقاً وشكّاً** فيما يحكم به، بأن تذعن نفوسهم لقضائه وحكمه، مع الرضا التام والقبول المطلق.

٣- **الانقياد والتسليم** الكلي للحكم في الظاهر والباطن، من غير ممانعة ولا منازعة، قال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده»[1].

وكل ذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

وتبين السورة أن **من عمل بما أمره الله تعالى ورسوله ﷺ، وترك ما نهاه عنه،** فإن الله عز وجل يسكنه دار كرامته، ويجعله مرافقاً لأصحاب الدرجات العليا، وهم صفوة الله من عباده، الأنبياء والصديقون والشهداء، ثم عموم المؤمنين، وهم الصالحون الذين صلحت سرائرهم وعلانيتهم: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: ٦٩].

ثم تنتقل الآيات، لتخبر أن **طاعة الرسول** ﷺ من طاعة الله تعالى، ومعصيته من معصية الله تعالى، لأنه المبلّغ عن الله تعالى، فليست الطاعة له بالذات، ولكنها مستمدة ممن يبلغ عنه وهو الله عز وجل.

وهو المعنى الذي جاء في الآية الكريمة: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾ [النساء: ٨٠].

---

(١) البخاري في الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان، (١/١٢)، رقم (١٤).

ثم تقرر آيات سورة النساء أن **معاداة الرسول** ﷺ، ومخالفته، وترك الإسلام أو الردة عنه، ومخالفة طريق المسلمين، تحجب عن مرتكبها عناية الله ورعايته، وتجعله يتخبط في دياجير الظلام والضلال، وتجعله مقوداً بنفسه وهواه، وتوجب له الدخول في نار جهنم وساءت مصيراً، وذلك في قوله تعالى: ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥**﴾ [النساء: ١١٥].

المطلب العاشر – أحكام الصلاة في سورة النساء[١]:

أ – صلاة الخوف:

نبه الله ﷻ في (سورة النساء) المجاهدين في سبيله إلى ناحية من شأنها أن تقوي الروح المعنوية فيهم، ألا وهي الالتجاء إلى الله تعالى، والاتصال به عن طريق القيام بأحب واجب ديني إليه تعالى وهو الصلاة، ورخص لهم فيهم كيفية خاصة لا تباح في غير السفر والحرب، وأمرهم بالجمع بين الصلاة وبين أخذ الأسلحة والحذر، وهكذا يشعر المجاهدون أنهم في جميع حالاتهم عباد الله ﷻ، يجاهدون في سبيله، ويهدون بأمره، ويؤدون واجبهم، لا يلهيهم شأن عن شأن، يقول الله تعالى: ﴿**وَإِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَقۡصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنۡ خِفۡتُمۡ أَن يَفۡتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ إِنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمۡ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ١٠١ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ وَلۡيَأۡخُذُوٓاْ أَسۡلِحَتَهُمۡۖ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلۡيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمۡ وَلۡتَأۡتِ طَآئِفَةٌ أُخۡرَىٰ لَمۡ يُصَلُّواْ فَلۡيُصَلُّواْ**

---

(١) انظر زاد المسير، ابن الجوزي (١٩٣/٢) وروح المعاني، الألوسي (١٣١/٥). وفي ظلال القرآن، قطب (٧٤٨/٢).

مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةًۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْۖ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ ﴾ [النساء: ١٠١-١٠٢].

وإن في تكليف المؤمنين بالصلاة وقت الحرب والاشتغال بقتال الأعداء، وفي حالة ترقب الموت، دليل واضح على أهمية هذا الواجب في تزكية النفوس، وفي الحصول على رضاء الله تعالى.

ب- صلاة المسافر[(١)]:

دلت الآيات من (سورة النساء) على جواز قصر الصلاة للمسافر وقد قال الشافعي[(٢)] رحمه الله: (القصر في غير الخوف بالسنة، وأما في الخوف مع السفر فبالقرآن والسنة، ومن صلى أربعاً فلا شيء عليه، ولا أحب لأحد أن يتم في السفر رغبة عن السنة). وقال يعلى بن أمية لعمر رضي الله عنهما:

ما لنا نقصر وقد أمنّا؟ قال عمر رضي الله عنه: عجبت مما عجبت منه، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال ﷺ: «صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته»[(٣)].

---

(١) انظر الجامع، القرطبي (٥/٣٥١) وما بعدها.

(٢) الشافعي: محمد بن إدريس بن شافع الهاشمي القرشي المطلبي، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، وإليه ينسب المذهب الفقهي الشافعي ت (٢٠٤) هـ انظر تذكرة الحفاظ: (١/٣٢٩).

(٣) مسلم في صلاة المسافرين، باب صلاة المسافرين وقصرها، (١/٤٧٨)، رقم (٦٨٦).

ج- تحريم الصلاة حالة السكر[1]:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء: ٤٣].

نهى الله تعالى في هذه السورة عبادة المؤمنين، أن يقربوا الصلاة في حالة السكر الذي لا يدري معه المصلي ما يقول، فكان الصحابة ﭫ قبل تحريم الخمر يمتنعون عن شرب المسكر إلى ما بعد صلاة العشاء، فإذا صلوا العشاء شربوا وكان هذا تمهيداً لتحريم السكر تحريماً باتاً في سورة المائدة، حيث يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

ولما نزلت هذه الآية الكريمة قال الصحابة ﭫ: انتهينا ربنا[2].

المطلب الحادي عشر- التيمم:

ذكرت (سورة النساء) حكماً هاماً من أحكام الطهارة ألا وهو التيمم، وهو رخصة لأصحاب الأعذار، وقد بينت السورة أسباباً أربعة للتيمم وهي:

المرض والسفر والحدث وملامسة النساء.

فالمريض يتيمم إن كان يؤذيه الماء، والمسافر وصاحب الحدث والجنابة يتيمم إن لم يجد الماء، وذلك كما وضّحت الآية من قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ

---

(١) انظر جامع البيان، ابن جرير الطبري النساء (٤٣) موسوعة التفسير.

(٢) أحمد، باب مسند أبي هريرة ﭬ، (٢/٣٥١)، رقم (٨٦٠٥).

﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٤٣].

المطلب الثاني عشر– مصادر التشريع الإسلامي[1]:

تذكر (سورة النساء) مصادر التشريع التي يجب أن يرجع إليها المسلمون في تصرفاتهم وأحكامهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ [النساء: ٥٩].

فالأحكام لا تخرج عن أحد الأوجه التالية:

أ– منصوصة في كتاب أو سنة.

والسنّة: ما أثر عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾.

ب– مجمع عليها من أهل الحل والعقد من الأمة، بعد استنادهم إلى دليل شرعي اعتمدوا عليه: ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾.

ج– غير منصوصة ولا مجمع عليها، وهذه سبيلها **الاجتهاد والقياس،** وهو عرض المسائل المتنازع فيها على القواعد العامة في الكتاب والسنة، ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾.

وأما المصادر التبعية الأخرى، كالاستحسان الذي يقول به الحنفية، والمصالح المرسلة التي يقول بها المالكية، والاستصحاب الذي يقول به الشافعية، فهي في الحقيقة راجعة إلى المصادر الأربعة الأصلية.

---

(١) انظر التفسير المنير، زحيلي (١٢٣/٥)، وأصول الفقه، وهبة الزحيلي (١٢) وما بعدها.

المطلب الثالث عشر – ضلالات أهل الكتاب[1]:

عرضت (سورة النساء) نوعاً من الحرب الفكرية التي تعلن على المسلمين، ابتغاء زلزلة إيمانهم، وصرفهم عن معتقداتهم، فتبين الكثير من فتن أهل الكتاب وأساليبهم في صرف المؤمنين عن حق الله وهدايته، فتعرض أولاً عنت اليهود مع رسول الله ﷺ فقد تركوا أحكام دينهم، وحرفوا كتابهم، واشتروا الضلالة بالهدى، ثم هم يخاطبون رسول الله ﷺ فيقولون: سمعنا قولك وعصينا أمرك، ويدعون عليه –قاتلهم الله– ﴿وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ﴾ [النساء: ٤٦]، أي لا أسمعك الله، ويقولون ﴿وَرَٰعِنَا﴾، وهي اسم فاعل من الرعونة أي الطيش والحمق، أو هي كلمة سب وطعن عندهم بدلاً من أن تستعمل بمعنى أنظرنا أو أمهلنا.

وقد نهى الله المؤمنين عن استعمال هذه الكلمة فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا﴾ [البقرة: ١٠٤].

وقال تعالى في (سورة النساء) يصور هذه الأفعال المذكورة:

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [النساء: ٤٤-٤٦].

---

(١) انظر البحر المحيط، أبو حيان (٣/٣٨٦) ومفاتيح الغيب، الفخر الرازي (١١/٥) والجامع، القرطبي (٦/٦) وما بعدها.

ثم تعرضت السورة إلى طلبهم أن ينـــزل عليهم كتاب من السماء، ولكنها تخفف وقع ذلك كله على قلب رسول الله ﷺ بأن هذا شأنهم الذي فعله أسلافهم مع موسى عليه السلام، كما تعرض لموقفهم من مريم والمسيح عليهما السلام.

وتذكر ما فعله أسلافهم الماضون من نقض المواثيق والكفر بآيات الله، وأكلهم الربا وأموال الناس بالباطل.

ثم تعرض لغلو النصارى في شأن المسيح وإساءتهم في حق الألوهية، وتعلن واقع الأمر في عيسى وأمه عليهما السلام. قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ ﴾ [النساء: ١٥٣-١٦١].

وتتوجه السورة بالنداء إليهم بيا أهل الكتاب قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ١٧٢﴾ [النساء: ١٧١-١٧٢].

وفي هذا النداء ما يدل على أهمية صلة المنادين بالوحي السماوي والهداية الإلهية، حتى صاروا أهلاً لكتاب الله، وفيه تقرير الحق في الألوهية وما لله تعالى من أوصاف الجلال والجمال، التي تأبى النبوة التي زعموها لبعض رسله الكرام، وفيه دليل واضح على أن رسولاً يأتي بعد التوراة والإنجيل مصدقاً لما فيهما من أصول الدين وأركان الهداية،مما يوضح أن إعراضهم عن رسالة هذا الرسول غير ملائم لاتصافهم بأنهم أهل الكتاب، فالآيات تسجل عليهم انحرافهم وعدم أهليتهم لهذا الانتساب وتناقضهم العجيب.

وكانت السورة قد ذكرت في سياقها بعضاً من أحوال هؤلاء المنحرفين، الذين يمدحون أنفسهم، ويدّعون ما ليس فيهم، فيقولون: نحن أبناء الله وأحباؤه، ونحن شعب الله المختار وأنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودات، ولن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، ولكن الله رد دعواهم بأنه لا قيمة لتزكيتهم أنفسهم، فإن التزكية تكون بالعمل الصالح، لا بالادعاء، والله هو الذي يزكي من يشاء من عباده بتوفيقه للعمل الصالح وهدايته إلى العقيدة الصحيحة، والآداب الفاضلة.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [النساء: ٤٩-٥٢].

المطلب الرابع عشر- عناية سورة النساء بالمجتمع[(١)]:

١- التكافل والتراحم:

ضمت (سورة النساء) أوامر كثيرة، تضمن للمجتمع حياة سعيدة من التكافل والتراحم بين أفراده، فأمرت أولاً المجتمع أن يهتم **بشؤون اليتامى** وتربيتهم وتهذيب أخلاقهم، وذلك حتى لا يكون اليتامى عنصر فساد في المجتمع: ﴿وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النساء: ٥].

كما أرشدت إلى أن **المال** الذي في يد بعض الأفراد، إنما هو قوام المجتمع ينتفعون به في المشروعات العامة، ويفرجون به أزماتهم وضائقاتهم الخاصة، عن طريق الزكاة والتعاون وتبادل المنافع، وهذا هو الوضع المالي في نظر الشريعة، فليس لأحد أن يقول: مالي وليس لأحد منه شيء فالمال مال الجميع، وينتفع به الجميع بالطريق التي شرعها الله في سد الحاجات ودفع الملمات، وهو ملك لصاحبه يتصرف به كما رسم الله وبين في كتابه، حتى إذا ما أخل بذلك فأسرف وبذّر حجر عليه. وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النساء: ٥].

---

(١) انظر جامع البيان، الطبري (النساء: ٥ و٣٦) وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير (النساء: ٥ و٣٦).

٢- الإحسان:

حفزت (سورة النساء) النفوس نحو العمل بالأحكام التي بينتها عن طريق التوجيه إلى الإحسان العام، وإلى أن سعادة المؤمن ليست معقودة بالإحسان إلى أسرته وأقاربه فقط، بل باستصحاب معنى الإحسان في كل شيء:

فأمرت بالإحسان في **عبادة الله**، وهي أصل الخير كله، ثم ذكرت الإحسان إلى **الوالدين** لأنهما عماد الأسرة، ثم يمتد الإحسان إلى **الأقارب والجيران** والأصحاب وإلى كل **أرباب الحاجات**، وبهذا ترتبط وحدات الأمة على أساس من الرحمة والتعاون في السراء والضراء.

قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء: ٣٦].

وبذلك يتحقق التكافل والتراحم الذي افتتحت بتقريره السورة ولفتت النظر إليه، إذ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١].

٣- الأمانة والعدل(١):

أرشدت الآيات في السورة إلى أمرين لا تسلم أمة ولا تسعد إلا بمراعاتهما والحرص عليهما، لأنهما أساس الحكم الصالح وسبيل الحياة الطيبة،

---

(١) انظر محاسن التأويل، القاسمي (١٣٣١/٥) وتفسير القرآن، شلتوت (٢١٥) وإلى القرآن الكريم، شلتوت (٤٩).

وهما: أداء الأمانات إلى أهلها، والعدل في الحكم بين الناس يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [النساء: ٥٨].

والأمانة تتناول كل ما يؤتمن عليه الإنسان، سواء أكان ذلك في حق نفسه أو في حق غيره من العباد، أو في حق ربه.

فرعاية الأمانة في حقوق الله: امتثال أوامره واجتناب نواهيه، واستعمال أعضاء الإنسان ومشاعره فيما يقربه من ربه، والأمانة في الوضوء والصلاة والزكاة والصوم والكيل والوزن والودائع.

ورعاية الأمانة في حق النفس: ألا يفعل الإنسان إلا ما ينفعه في الدين والدنيا والآخرة، وألا يقدم على عمل يضره في آخرته أو دنياه، ويتوخى أسباب المرض ويعمل بقواعد علم الصحة.

قال رسول الله ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»[١].

ورعاية الأمانة في حق الآخرين: رد الودائع والعواري، وعدم الغش في المعاملات، والجهاد والتضحية، وعدم إفشاء أسرار الناس وعيوبهم.

والأمانة في العلم: أن يؤديه الإنسان على وجهه الصحيح.

والأمانة في المشورة: أن يبدي الإنسان رأيه لمن يحتاج إليه دون غش أو خداع.

وقد ذكر رسول الله ﷺ الأمانة في أحاديث كثيرة، منها قوله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان»[٢].

---

(١) البخاري في الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن، (٥/٢)، رقم (٨٥٣).

(٢) البخاري في الإيمان، باب علامة المنافق، (١٦/١)، رقم (٣٣).

وقال رسول الله ﷺ: «أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك»[1].

أما **العدل في الأحكام** فيرجع إلى تحري الحق بوسائله، والبعد عن الهوى والشهوة، حتى يأخذ الضعيف حقه، ولا يبغي عليه القوي.

وقد خاطب الله تعالى رسوله الكريم ﷺ أن يقضي بين الناس بالحق والعدل دون محاباة أحد، ولا إلحاق ظلم بأحد، ولو كان غير مسلم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥-١٠٦].

وفي ذلك الخطاب زيادة تأكيد لجميع الأمة أن يتحروا الحق والعدل في أحكامهم، فإن كان النبي ﷺ قد أمر بهذا فمن باب أولى أن يؤمر كل من بعده بطلب الحق وإقامة العدل في الحكم بين الناس، وفي ذلك يقول ﷺ: «إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار»[2].

وقد أمر الله تعالى المؤمنين أن يقوموا بالعدل، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، في كل المجالات التي يمكن للإنسان أن يطبق فيها العدل، فالحاكم يعدل بين أفراد رعيته، والقاضي في أحكامه، والموظف بين أصحاب الحوائج عنده، والرجل في أهل بيته، كما أمرت الآيات أن يشهد الإنسان بالحق، ولو كانت هذه الشهادة على نفسه، أو والديه أو أحد أقربائه، وذلك من تمام العدل والحق.

---

(١) البخاري في الأحكام، باب موعظة الإمام للخصوم، (١٧١/٤)، رقم (٦٤٨).

(٢) الترمذي في البيوع، باب ما جاء في النهي للمسلم أن يدفع إلى الذمي الخمر، (٥٦٤/٣)، رقم (١١٨٥).

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء: ١٣٥].

٤- النجوى التي فيها رضاء الله تعالى[(١)]:

إن النفوس مجبولة على إظهار الخير والتحدث به على الملأ علانية، ومجبولة على محبة إخفاء الشر وكتمانه، فأشارت (سورة النساء) إلى أن الكثير من كلام الناس هو مما لا خير فيه، إذ لا تكون المناجاة والكلام بين الناس خيراً إلا إذا كانت في أحد أمور ثلاثة بينتها الآية الكريمة: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

وهذه الأمور هي:

١- الأمر بالصدقة لإعانة المحتاج ومواساة الفقير والمسكين.

٢- الأمر بالمعروف: وهو ما تعارف عليه الشرع من كل ما فيه مصلحة عامة أو خير عام.

٣- الإصلاح بين الناس في خصوماتهم ومنازعاتهم، وقد جعلها رسول الله ﷺ أفضل من نوافل كثيرة يقوم بها الإنسان، فقال ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة، قالوا: بلى، قال ﷺ: صلاح ذات البين فإن فساد ذات البين هي الحالقة»[(٢)].

---

(١) انظر مفاتيح الغيب، الرازي (٣٣/١١).

(٢) الترمذي في صفة القيامة والرقائق، (٣٦٤/٤)، رقم (٢٤٣٣).

وقد جعل الله تعالى النجوى مظنة الإثم والشر غالباً، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَـٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَـٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَـٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [المجادلة: ٩].

وقال رسول الله ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث، فإن ذلك يحزنه»[(١)].

٥- تحية الإسلام وردها:

تعلمنا آيات (سورة النساء) التحية وآدابها، والتحية هي الدعاء بالحياة، فإذا سلم المسلم على أخيه المسلم بتحية الإسلام: (**السلام عليكم ورحمة الله وبركاته**)، فهو يدعو له بالحياة الطيبة، التي يسودها السلام والود والمحبة، وهنا يجب على الإنسان أن يرد التحية بأفضل ما عنده، ويندب له أن يزيد على التحية ما كان أفضل منها من الدعاء بالخير للمسلم، والأولى أن يكون الرد ببشاشة وسرور وحسن استقبال.

وإن السلام بين المسلمين مما يزيد أواصر المحبة والوئام، ويشعرهم بالطمأنينة، لأن السلام اسم من أسماء الله تعالى، وهو يعني السلم والسلام والأمن والأمان.

قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنون حتى تحابوا، أفلا أدلكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم: أفشوا السلام بينكم»[(٢)].

---

(١) الترمذي في الأدب، باب ما جاء لا يتناجى اثنان دون ثالث، (١٢٨/٥)، رقم (٢٧٥١).

(٢) الترمذي في صفة القيامة، باب سوء ذات البين، (٦٥٢/٤)، رقم (٢٥١٢).

المطلب الخامس عشر – المنافقون في سورة النساء[1]:

تحدثت سورة النساء عن المنافقين وبينت جملة من صفاقم، ومن هذه الصفات:

١- الاحتكام إلى الطاغوت:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء: ٦٠-٦١].

تبين الآيات جماعة من المنافقين، يدّعون الإيمان بما أنزل الله على رسوله ﷺ وعلى الأنبياء الأقدمين، ولكنهم لا يقبلون أن يتحاكموا إلى رسول الله ﷺ في خصوماتهم.

وإن كل من يعدل عن كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، إلى ما سواهما من الباطل وهو الطاغوت متعمداً ذلك، فهو منافق بلا شك وإن أظهر الإيمان.

٢- التثاقل عن الجهاد:

إن من هؤلاء المنافقين من يتثاقل عن تلبية دعوة الجهاد، ويثبطون همم غيرهم وتفرح قلوبهم إذا وقعت الهزيمة على المسلمين، ويحمدون الله على تثاقلهم وتخلفهم عن القتال، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾﴾ [النساء: ٧٢].

---

(١) انظر الجامع، القرطبي (٥/٢٨٨) وإرشاد العقل السليم، أبو السعود (٢/٢٠٠).

إنهم يربطون إقدامهم وإحجامهم بالنتائج المادية للقتال ويجعلونها أكبر همهم، وليس لهم من الإيمان القلبي ما يدفعهم إلى التضحية في سبيل الله ونصرة دينه.

٣- النكوص عن القتال:

ومنهم من ينكص على عقبيه عن القتال عندما يكتب عليه بعد أن كانوا يتطلعون إليه ويستعجلونه. قال تعالى: ﴿**وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ**﴾ [النساء: ٧٧].

٤- يبيتون غير ما يظهرون:

ومن هؤلاء الذين يظهرون الطاعة والامتثال عند سماع الأمر بالقتال والدعوة إليه، ثم إذا خرجوا بيتوا غير الذي يظهرون من العزم على المخالفة والنكوص عن الدعوة، قال الله تعالى: ﴿ **وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ٨١** ﴾ [النساء: ٨١].

٥- المرجفون:

ومنهم الذين تعودوا نشر الشائعات غير مقدرين لنتائجها، وقد كان لإذاعة خبر موت النبي ﷺ في غزوة أحد أبلغ الآثار السلبية في قوة الجيش المعنوية، قال الله تعالى: ﴿ **وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ** ﴾ [النساء: ٨٣].

وقال الله ﷻ: ﴿ **لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا ٦٠ مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا ٦١** ﴾ [الأحزاب: ٦٠-٦١].

٦- كفرهم المحتم:

قال تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءًۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾﴾ [النساء: ٨٨-٨٩].

في هذه الآيات يخاطب الله تعالى المؤمنين، مستنكراً عليهم انقسامهم في شأن كفر المنافقين، مع قيام الأدلة عليه ويخبرهم تعالى أنهم كافرون بسبب عصيانهم ومخالفتهم الرسول ﷺ، واتباعهم الباطل، ومعاداتهم المسلمين وبغضهم لهم والتآمر عليهم، وعدم هجرتهم إلى الله ورسوله، وما داموا كذلك فيجب على المؤمنين الحذر منهم ومن مكائدهم، وعدم اتخاذهم أنصاراً وأولياء.

٧- اتخاذهم الكافرين أولياء:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء: ١٣٧-١٤٠].

في الآيات تهديد ووعيد للمنافقين الذين يتخذون الكافرين أولياء وأنصاراً وأعواناً، ويتجاوزون ولاية المؤمنين ويتركونها، ظناً منهم أن الغلبة

ستكون للكافرين، والعزة والمنعة لهم. ولكنهم أخطؤوا في اعتقادهم لأن العزة لله تعالى في الدنيا والآخرة، يؤتيها من يشاء وستكون في النهاية لأولياء الله الذين كتب لهم العزة والغلبة.

٨- ذبذبة المنافقين:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢-١٤٣].

تذكر الآيات بعضاً مما يميز المنافقين، فهم من جهلهم وقلة علمهم يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ويظنون أنهم يخادعون الله، ولكن الله تعالى لا يخدع، لأنه علام الغيوب، وسيجازيهم على صنيعهم.

وهم يتميزون أيضاً بأنهم يقومون إلى الصلاة متباطئين متثاقلين، فلا إيمان يدفعهم، ولا نية لهم فيها، ولا يعقلون معناها، لذلك يقومون إليها تظاهراً فقط دون تحقيق أي معنى من معانيها.

ثم هم بالتالي مذبذبون مضطربون متحيرون بين الإيمان والكفر، لا هم مع المؤمنين ولا هم مع الكافرين، لذلك فقد هددهم الله بعقاب يليق بكفرهم. فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

المطلب السادس عشر – عناية سورة النساء بشؤون الدولة والجهاد[(١)]:

أرشدت الآيات في (سورة النساء) إلى ما يجب على الأمة في سبيل المحافظة على وجودها من اتخاذ الحيطة والحذر من الأعداء بإعداد الأسلحة والجيش المقاتل، وترسم السورة سياسة الحرب وتضع قواعد القتال المؤدية إلى النصر والفوز المبين.

ولا يصح للمؤمن أن يخشى اقتحام المعارك لأن أجل الإنسان لا يتأخر ساعة ولا يتقدم، وعلى المؤمنين اتخاذ ما يمكنهم من أسباب القوة غير محتجين بقدر، ولا يائسين من حدوث نكسة.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ٧١ وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا ٧٢ وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا ٧٣ ۞ فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٧٤ وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ٧٥ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٧١-٧٦].

كما تأمر الآيات أفراد الأمة أن ينهضوا جميعاً ويكونوا متعاضدين وعلى استعداد دائم للجهاد، فيقول تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ إِن تَكُونُواْ

---

(١) انظر محاسن التأويل، القاسمي (١٣٩٢/٥) والجامع، القرطبي (٣٣٦/٥).

تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [النساء: ١٠٤].

وذلك كقوله تعالى في الأنفال: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنفال: ٦٠].

وخاطبت السورة رسول الله محمداً ﷺ تأمره بالقتال بنفسه وترك من نكل عنه ورفض القتال.

فسواء أفردوه وحده في القتال أو أعانوه فإن الله ناصره، ومتكفل بحفظه ونصره وما عليه إلا أن يحرضهم على القتال دون تعنيف.

قال تعالى: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ﴿٨٤﴾﴾ [النساء: ٨٤].

ثم أمرت الآيات المسلمين بالتثبيت في جهاد الأعداء حينما يشتبه عليهم المسلم وغير المسلم أو المسالم والمحارب فليتمهلوا في الحكم عليه وليتبينوا حقيقة أمره، ولا يتعجلوا بقتله، فإنهم مأمورون بالعمل بالظاهر، والله أعلم بالسرائر، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿٩٤﴾﴾ [النساء: ٩٤].

المطلب السابع عشر – القتل وجزاؤه[1]:

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء: ٩٢-٩٣].

تبين الآيات أنه لا ينبغي للمؤمن أن يقتل مؤمناً بأي وجه، إلا أن يكون القتل خطأ، أي عن غير قصد لإزهاق الروح لأن القتل جريمة شنيعة، وكبيرة من الكبائر، ويجب أن يكون هناك سبب وجيه معتبر شرعاً للقتل كما بين رسول الله ﷺ في قوله: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والمفارق لدينه التارك للجماعة»[2].

وقال ﷺ: «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم»[3].

وإن هذا القتل إن حصل فقد فرض الله له عقوبة، وهي أمران:

الأول: تحرير رقبة مؤمنة أي عتق نفس مملوكة.

الثاني: دية تدفع إلى أهل القتيل عوضاً عما فاتهم من قتيلهم.

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (النساء ٩٢-٩٣) موسوعة التفسير.

(٢) البخاري في الديات، باب قوله تعالى (النفس بالنفس) (٢٠٩/١٢)، رقم (٦٤٨٤).

(٣) الترمذي في الديات، باب ما جاء في تشديد قتل المؤمن، (١٦/٤)، رقم (١٣٤٥).

فإن كان هذا القاتل لا يملك الرقبة ولا ثمنها، شرع الله له أمراً آخر بديلاً وهو صيام شهرين متتابعين، توبة من الله وتطهيراً لنفسه كي تطيب ولا يأخذه التأثم مما فعل.

أما القاتل عمداً فقد بينت السورة أن جزاءه الخلود في جهنم، والوقوع في غضب الله عليه، هذا إن لم يتب على رأي الجمهور أما إن تاب فإنه تقبل توبته بإذن الله، لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣].

والآية عامة في جميع الذنوب. ولقوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨].

المطلب الثامن عشر – الهجرة في سبيل الله[1]:

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةًۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٧-١٠٠].

هذه الآيات توبيخ للمتقاعسين عن الهجرة، إذا كان ذلك بمكنتهم وقدرتهم، وفيها عذر لغير القادرين من الرجال المرضى، والنساء الضعيفات والولدان، الذين لا يملكون القدرة على الهجرة في سبيل الله.

---

(١) انظر الجامع، القرطبي (٥/٣٤٧) وما بعدها.

فعلى الإنسان أن يهجر أرض المعاصي، وينتقل إلى ديار تقام فيها شعائر الإسلام، لا كما يفعل بعض المسلمين اليوم، إذ يتركون بلاد الإسلام ويهاجرون إلى ديار الكفر، بحجة طلب الرزق والمعاش، رغم أن ذلك متاح لهم في البلاد الإسلامية، ثم يقولون: ماذا نفعل؟ نحن مرغمون على عدم إقامة شعائر ديننا، ويجب علينا أن نتملق الكفار لنعيش!!! وما هكذا أمروا.. وما لهذه الذلة خلقوا.

وقد أوضح العلماء أن السفر ينقسم إلى قسمين:

الأول: الهرب، و**الثاني**: الطلب.

أما **الهرب** فله ستة أسباب:

١- الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام: وكانت فرضاً في أيام النبي ﷺ، وهي باقية مفروضة إلى يوم القيامة.

أما الهجرة التي انقطعت بالفتح بقوله ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية»[1] فهي القصد إلى النبي ﷺ حيث كان.

٢- الخروج من أرض البدعة لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام: ٦٨].

٣- الخروج عن أرض غلب عليها الحرام، لأن طلب الحلال فرض على كل مسلم.

٤- الفرار من الأذية في البدن، وأول من فعله إبراهيم عليه السلام فإنه لما خاف من قومه قال: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، كذلك فعله موسى عليه السلام فقال تعالى مخبراً عنه: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ٢١].

---

(١) البخاري في المغازي، باب مقام النبي ﷺ بمكة، (٨/٢٠)، رقم (٢٦٣١).

٥- خوف المرض في البلاد التي يكثر فيها التلوث البيئي والأوبئة سريعة الانتشار.

٦- خوف الأذية في المال.

وأما **الطلب** فله تسعة أسباب:

١- سفر العبرة، لقوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ﴾ [يوسف: ١٠٩]

٢- سفر الحج، وهو فرض على المستطيع لقوله ﷺ في حديث أركان الإسلام «وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً»(١).

٣- سفر الجهاد.

٤- سفر المعاش، فقد يتعذر على المرء معاشه مع الإقامة، فيخرج في طلبه، شرط أن يكون في بلاد يأمن فيها على نفسه وماله ودينه.

٥- سفر التجارة والكسب الزائد على القوت، وذلك جائز لقوله تعالى: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ﴾ [البقرة: ١٩٨]. أي التجارة، وهي نعمة منّ الله بها في سفر الحج، فمن باب أولى أنها جائزة إذا انفردت.

٦- السفر في طلب العلم.

٧- السفر بقصد زيارة الأماكن المقدسة التي يندب للإنسان السفر إليها، لقوله ﷺ: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجد الحرام ومسجد الأقصى ومسجدي»(٢).

٨- الثغور للرباط بها وتكثير سوادها والدفاع عنها.

---

(١) مسلم في الإيمان، باب وصف جبريل للنبي ﷺ الإسلام والإيمان، (١/٢٩)، رقم (٨).

(٢) البخاري في التطوع، باب مسجد بيت المقدس، (٢/٦١)، رقم (١١٩٨).

٩- زيارة الإخوان في الله تعالى لقوله ﷺ: «زار رجل أخاً له في قرية، فأرصد الله له ملكاً على مدرجته، فقال: أين تريد؟ قال: أخاً لي في هذه القرية. قال: هل له عليك من نعمة تربّها؟ قال: لا إلا أني أحبه في الله، قال: فإني رسول الله إليك إن الله أحبك كما أحببته فيه»[1].

المطلب التاسع عشر- الشيطان ومكائده[2]:

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾ [النساء: ١١٦-١٢١].

كانت العرب في الجاهلية تزعم أن الملائكة بنات الله، ويتخذون لهذه الملائكة تماثيل يسمونها بأسماء الإناث (اللات، العزى، مناة) ثم يعبدون هذه الأصنام، يتقربون بها إلى الله زلفى، وكان بعضهم يعبد الشيطان صراحة.

وهذه الآيات تبين أن المشركين بأي نوع من الشرك، إنما هم يدعون الشيطان ويستمدون منه.

ذلك الشيطان الذي لعنه الله بسبب معصيته، فصار عدواً للبشر، وصرح بنيته في إضلال فريق من أبناء آدم، ووعدهم بالوعود والأمنيات الكاذبة،

---

(١) مسلم في البر والصلة، باب فضل الحب في الله، (١٢/٨)، رقم (٢٥٦٧).

(٢) انظر في ظلال القرآن، قطب (٧٦/٢).

ودفعهم إلى أفعال قبيحة، من تمزيق آذان الأنعام، وتغيير خلق الله، كما يفعل دعاة الفتنة اليوم، الذين ينادون بنداء الشيطان، ويأتمرون بأوامر الشيطان، من وشم في الوجه ونحوه وتغيير حجم الشفاه أو الأنف، أو العمليات التجميلية في مختلف أنحاء الجسم، التي لا تدعو إليها إلا الرغبة في شكل أجمل، لا الحاجات المرضية، ولا يعلمون أن الله عز وجل قد خلق الإنسان في أحسن تقويم، وصوره فأحسن تصويره، واختار لكل إنسان أفضل ما يناسبه، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: ٤].

وقال تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [غافر: ٦٤].

وقد ثبت عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن، المغيرات خلق الله عز وجل، فقالت امرأة:

ما هذا؟ فقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ومالي لا ألعن من لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي كتاب الله، قالت: والله لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدته، فقال: والله لئن قرأتيه لقد وجدتيه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ﴾ [الحشر:٧][(١)].

فالشيطان يعد أولياءه بالباطل، ويمنيهم بما هو كاذب، فيزين لهم النفع في ما يضرهم، ولكنهم ليسوا معذورين بإطاعته والسير خلفه وهو إمامهم، لقد أوعدهم الله عز وجل عذاباً شديداً في جهنم، ولا يستطيعون أن يجدوا لهم مخرجاً منه.

---

(١) البخاري في اللباس، باب المتنمصات، (١٠/٣١٤)، رقم (٥٦٠٧).

المطلب العشرون – الكفر بالله تعالى وعقوبته:

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٍ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١].

ويقول عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧٠﴾﴾ [النساء: ١٦٧-١٧٠].

تبين الآيات في (سورة النساء) بعضاً من صفات الكافرين، وتذكر أهم بكفرهم بالله وبرسوله وبالقرآن الكريم قد ابتعدوا عن الحق والصواب، ولم يكتفوا بامتناعهم عن الإيمان وكفرهم، بل صدوا الناس عن الإيمان، وكانوا دعاة سوء لكفرهم، مزينين للناس طريق الغواية والضلال ليضلوهم معهم.

كما تذكر الآيات عقاب هؤلاء الكافرين، وهو الخلود في نار جهنم، في عذاب مهين أليم، لا يجدون منه مخرجاً.

إن دعوة الإسلام هي دعوة الحق التي يجب أن يتبعها الناس جميعاً، إنها دعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والإعراض عما سواه، وهذا ما تتقبله كل العقول السليمة، وترفض كل ما سواه.

المطلب الواحد والعشرون – الدين الواحد[1]:

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء: ١٦٣-١٦٥].

تحدثت الآيات في (سورة النساء)، عن الوحي الذي أوحاه الله تعالى إلى أنبيائه، وبينت أنه جنس واحد، ووحي واحد نزل على جميع الأنبياء والرسل الذين أرسلهم الله تعالى للبشرية، وعلى الإنسان المسلم أن يصدق بجميع الأنبياء ويؤمن بهم، وبما أنزل عليهم من كتب سماوية.

كما دلت الآيات أن من الأنبياء عدداً قد ذكرت أسماؤهم في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٤-٨٦].

والأنبياء المذكورين في القرآن الكريم خمسة وعشرون نبياً عليهم الصلاة والسلام، وهناك رسل آخرون لم يرد ذكر أسمائهم في القرآن الكريم، لحكمة

---

(١) انظر التفسير المنير، زحيلي (٦/ ٣٠) وما بعدها.

أرادها الله تعالى. قال ﷻ: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ ﴾ [النحل: ٣٦]

وقال تعالى: ﴿ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴾ [فاطر: ٢٤].

والقصد من إيراد قصص الأنبياء العظة والذكرى، كما قال تعالى: ﴿ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ ﴾ [يوسف: ١١١].

وفي تلك القصص تثبيت لقلب رسول الله ﷺ كما قال تعالى: ﴿ وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ١٢٠ ﴾ [هود: ١٢٠].

وبينت الآيات أن مهمة الأنبياء والرسل جميعاً هي مهمة واحدة على اختلاف العصور ومر الدهور وهي أنهم يبشرون من أطاع الله تعالى واتبع رضوانه بالخيرات، وينذرون من خالف أمره وكذب رسله بالعقاب والعذاب.

والحكمة من إرسال الأنبياء والمرسلين هداية الناس جميعاً إلى الحق والخير والصراط المستقيم، لئلا يكون على الله للناس حجة بعد الرسل.

خاتمة السورة

ختمت السورة الكريمة ببيان ضلال النصارى بشأن المسيح عيسى ابن مريم عليهما السلام، حيث غالوا فيه وفي أمه، حتى عبدوهما من دون الله، وتبنوا فكرة التثليث فأصبحوا وثنيين مشركين، وقد دعتهم الآيات إلى الرجوع إلى العقيدة السمحة الصافية عقيدة التوحيد قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ

وَرُسُلِهِۦ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ ﴾ [النساء: ١٧١].

ثم انتقلت إلى دعوة الناس جميعهم، بأنه قد جاءهم من الله برهان ساطع، ودليل قاطع يبين لهم حقيقة الإيمان بالله تعالى، ويرسم لهم أنظمة المجتمع الصالحة لحياة أفضل، هذا البرهان هو محمد ﷺ الذي نشأ بينهم في الجاهلية، ولكنه لم يتأثر بمفاسدها وأدرانها، وإنما تعهده الله تعالى بالتربية والعناية والإعداد لحمل الرسالة، وأنزل عليه القرآن الكريم الذي جاء لتصحيح العقيدة والنظام، فقرر التوحيد الخالص وحارب الوثنية والشرك، وأبان زيف اليهودية والنصرانية، وأرسى معالم الهداية وأوضح طريق العبادة الصحيحة لله تعالى، ووضع أسس الأخلاق وأنظمة الحياة الرشيدة في السياسة والحرب والسلم والاقتصاد والاجتماع، فكان ذلك بالإضافة إلى السيرة الذاتية للنبي ﷺ برهاناً على كون هذا الدين هو الدين الحق الذي لا معدل عنه ولا مثيل له قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿١٧٥﴾ ﴾ [النساء: ١٧٤-١٧٥].

❁ ❁ ❁

الفهرس

هذا الكتاب

مع كثرة الكتب وتنوعها، ومع ضيق الوقت وندرة الفراغ، لا بد من نظرة متأنية متفحصة في انتقاء الكتاب الأجود الذي يحوي فوائد جمة في وريقات معدودة.

وهذا ما دفع **دار العصماء** إلى اختيار هذا الكتاب الذي جمع الأسلوب السهل واللطيف، وفاض بالفوائد العميمة، فهو تفسير لبعض سور القرآن الكريم من وجهة نظر تربوية.

لاسيما أن المؤلفة لها باع طويل في تربية الأجيال والدعوة إلى الله تعالى، مع ما تتميز به من سعة الفهم والإدراك لكتاب الله تعالى، وحسن التعبير عن معاني الآيات الكريمة، بما نستطيع القول أنها لم تُسبق إلى مثل هذا، وكتبها الكثيرة في هذا المجال شاهدة على ما نقول.

نسأل الله تعالى لنا ولها القبول والتوفيق وللقراء المتعة والانتفاع.